الأدلة المادية

على وجود الله





الأدلة المادية

على وجود الله

فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى

أخبار اليوم
رئيس مجلس الإدارة : إبراهيم سعده

تصميم الغلاف : خالد عبد الرازق



أسباب الوجود

الله سبحانه وتعالى وضع فى كونه
كله آيات تنطق بوجوده ، وتنطق
بعظمته ، وتنطق بأنه هو
الخالق .. الجماد يشهد أن لا
إله إلا الله .. والنبات يشهد أن لا
إله إلا الله .. والحيوان يشهد أن
لا إله إلا الله .. والإنسان يشهد
أن لا إله إلا الله .. وكل هذا يشهد
بأدلة ناطقة لا تحتاج حتى إلى
مجرد البحث والتفكير والعمق.

ولقد خاطب الله سبحانه وتعالى كل العقول في كل الأزمان ، فجعل هذه الأدلة التي تنطق بوجوده من أول الخلق .. ثم كلما تقدم الإنسان ، وارتقت الحضارة .. وكشف الله من علمه ما يشاء لمن يشاء .. ازدادت القضية رسوخاً وازدادت الآيات وضوحاً .. ذلك أن الله شاء عدله أن يخاطب كل العقول .. فجاءت آيات الله في الكون الناطقة بألوهيته وحده ليفهمها العقل البسيط ، والعقل المرتقي في الكون .. ولا اعتقد أن أحداً يستطيع أن يجادل في هذه الأدلة ولا أن ينكر وجودها .

ولقد أوجد الله سبحانه وتعالى في هذا الكون أدلة مادية وأدلة عقلية وأدلة نصل إليها بالحواس .. كلها تنطق بوحدانية الله وبوجوده .

ولقد جعل الله الأداة الأولى لإدراك وجوده هي العقل .. العقل هو الذي يدرك وجود الله .. بالدليل العقلي الذي وضعه الخالق في الكون .. ولكن مهمة العقل بالنسبة لهذا الوجود محدودة .. ذلك أننا بالعقل ندرك أن هناك خالقاً مبدعاً قادراً .. ولكننا بالعقل لا نستطيع أن ندرك ماذا يريد الخالق منا .. وكيف نعبده .. وكيف نشكره .. وماذا أعد لنا من جزاء .. يثيب به من أطاعه ، ويعاقب به من عصاه .. فهذا كله فوق قدرة العقل .

ولذلك كان لابد أن يرسل الله الرسل ليبلغونا عن الله .. لماذا خلق الله هذا الكون .. ولماذا خلقنا .. وما هو منهج الحياة الذي رسمه لنا لنتبعه .. وماذا أعد لنا من ثواب وعقاب ؟. فتلك مهمة فوق قدرات عقولنا ، وتلك مهمة لو استخدمنا فيها العقل لما وصلنا إلى شئ .

وجاء الرسل ومعهم المعجزات من الله بصدق رسالاتهم ومعهم المنهج .. وقاموا بإبلاغ الناس .. ولكننا لن نتحدث هنا عن معجزات الرسل .. وعما جاءوا به .. ولن نتكلم عن أي شئ غيبي .

ولكننا سنتحدث عن الماديات وحدها .. ونتكلم عن الأدلة المادية ، بما فيها تلك الأدلة التي ترينا فتجعلنا نوقن أن الغيب موجود .. وأن ما لا نراه يعيش حولنا .. كل هذا بالعقل وليس بالإيمان.

فالله سبحانه وتعالى وضع الدليل الإيماني في الكون كما وضع الدليل العقلي .. ولكننا سنحتكم للعقل وحده .. ليرى الناس جميعاً أن الاحتكام للعقل يعطينا آلاف الأدلة .

هذه الأدلة هي من آيات الله ، وكلها تشهد أنه لا إله إلا الله ..

الوجــود .. والإنســان

وإذا أردنا أن نبدأ بالأدلة المادية فلابد أن نبدأ بالخلق .. ذلك الدليل الذي نراه جميعاً أمام أعيننا ليلا ونهاراً .. ونلمسه لأننا نعيشه .. فالبداية هي أن هذا الكون بكل ما فيه قد وجد أولا قبل أن يخلق الإنسان .. وتلك قضية لا يستطيع أحد أن يجادل فيها .. فلا أحد يستطيع أن يقول إن خلق السموات والأرض تم بعد خلق الإنسان .. بمعنى أن الإنسان جاء ولم تكن هناك أرض يعيش عليها .. ولا شمس تشرق .. ولا ليل ولانهار .. ولا هواء يتنفسه.. بل إن الإنسان جاء وكل شيء قد أعد له قبل أن يأتي، وقبل أن يوجد، وليس فقط أن كل شيء قد أعد له .. بل إن هناك أشياء أكبر من قدرة الإنسان خلقت وسخرت لتخدمه وتعطيه كل متطلبات الحياة بدون مقابل .. وأشياء أخرى خلقت وسخرت للإنسان تعطيه ما يشاء ولكنها محتاجة الى جهد الإنسان وعمله ، وذلك حتى تتم عمارة الأرض.

إذن فباستخدام العقل وحده لا أحد يستطيع أن يجادل في أن هذا الكون قد خلق وأعد لحياة الإنسان قبل أن يخلق الإنسان نفسه .. فإذا

جاء الحق سبحانه وتعالى وقال لنا :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾

(الآية ٢٩ من سورة البقرة)

لا يستطيع أحد أن يجادل عقلياً في هذه القضية .. لأن الكون تم خلقه قبل خلق الإنسان .. فكيف يكون للإنسان عمل قبل أن يوجد ويخلق ؟.

وتأتي الآية الكريمة :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾

(من الآية ٣٠ من سورة البقرة)

نقول: إن هذا يؤكد الحقيقة بأن الكون أعد للإنسان قبل أن يخلق .. وهذه قضية يؤكدها العقل .. ولا يستطيع أن يجادل فيها.

وبذلك تكون قد وصلنا إلى النقطة الأولى ، وهي أن الله سبحانه وتعالى بكمال صفاته وقدراته قد خلق هذا الكون وأوجده ونظمه غير مستعين بأحد من خلقه .. ولا محتاج لأحد من عباده .. وأننا نحن جميعاً – أي البشر – قد جئنا إلى كون معد لنا إعدادا كاملا.

ولكن قدرة هذا الكون لا تخضع لنا ولا لقدراتنا .. بل هي أكبر من هذه القدرات بكثير. فالشمس مثلا أقوى من قدرة البشر جميعاً.. وكذلك الأرض والبحار والجبال .. إذن فلابد أن تكون هذه الأشياء قد أخضعت لنا بقدرة من خلقها وليس بقدرتنا نحن .. ذلك أنها مسخرة لنا لا تستطيع أن تعصى أمراً .. فلا الشمس تستطيع أن تشرق يوماً وتغيب يوماً حسب هواها لتعطي الدفء ووسائل استمرار الحياة لمن تريد .. وتمنعه عمن تشاء .. ولا الهواء يستطيع أن يهب يوماً ويتوقف يوماً .. ولا المطر

يستطيع أن يمتنع عن الأرض فتنعدم الحياة ويهلك الناس .. ولا الأرض تستطيع أن تمتنع عن إنبات الزرع .. لا شئ من هذا يمكن أن يحدث .. ولا تستطيع البشرية كلها أن تدعى أن لها دخلا فى مهمة هذا الكون .. لأنه لا خلق هذه الأشياء ولا استمرارها فى عطائها يخضع لإرادة البشر.

فإذا جئنا إلى الإنسان وجدناه هو الآخر لابد أن يشهد بأن له خالقاً وموجداً .. فلا يوجد من يستطيع أن يدعى أنه خلق إنساناً .. ولا من يستطيع أن يدعى أنه خلق نفسه.

قضية الخلق محسومة

إذن فقضية الخلق محسومة لله سبحانه وتعالى لا يقبل فيها جدل عقلى .. فإذا جاء بعض الناس وقالوا: إن هذا الكون خُلق بالمصادفة .. نقول: إن المصادفة لا تنشئ نظاماً دقيقاً كنظام الكون.. لا يختل رغم مرور ملايين السنين.

وإذا جاء بعض العلماء ليدعي أنه كانت هناك ذرات ساكنة ثم تحركت وتكثفت واتحدت .. نقول من الذي أوجد هذه الذرات .. ومن الذى حركها من السكون ؟. وإذا قيل إن الحياة بدأت بخلية واحدة فى الماء نتيجة تفاعلات كيماوية .. نقول من الذى أوجد هذه التفاعلات لتصنع هذه الخلية؟

ونحن لن ندخل مع هؤلاء فى جدل عقيم .. وإنما نقول لهم: إن من إعجاز الخالق .. أنه أنبأنا بمجيئهم قبل أن يأتوا .. وأنبأنا أكثر من ذلك أن هؤلاء يضلون .. أى ليسوا على حق ، ولكنهم على ضلال .. وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا ﴾

(من الآية ٥١ من سورة الكهف)

وهكذا نرى من يأتى ليضل الناس بنظريات كاذبة عن أصل خلق السموات والأرض .. وأصل خلق الإنسان .. ومن يدعى أن أصل الإنسان قرد .. وهى نظرية يملؤها الغباء .. فنحن لم نشهد قرداً تحول لإنسان .. وإذا كان أصل الإنسان قرداً .. فلماذا بقيت القرود على حالها حتى الآن ولم تتحول إلى بشر ؟! ومن الذى منعها أن يحدث لها هذا التحول ما دام قد حدث فى الماضى ؟! ولقد نسى هؤلاء أن الوجود لابد أن يكون من ذكر وأنثى وإلا انقرض النوع .. وهؤلاء لم يقولوا لنا عندما ادعوا أن قرداً تحول إلى إنسان .. من أين جاء القرد الذى تحول إلى امرأة ليتم التكاثر..

وبدون الدخول فى جدل لا يفيد .. نقول لهؤلاء جميعاً: لقد جئتم مثبتين للإيمان ومثبتين لكلام الله .. فلو أنه لم يأت من يضل بنظريات كاذبة فى خلق السموات والأرض وفى خلق الإنسان .. لقلنا: إن الله سبحانه وتعالى قد أخبرنا فى القرآن الكريم .. أنه سيأتى من يضل فى خلق السموات والأرض وفى خلق الإنسان ، ولكن لم يأت أحد يفعل ذلك .. ولكن كونهم جاءوا وكونهم أضلوا .. يجعلنا نقول : سبحان ربنا .. لقد أخبرنا عن المضلين وجاءوا فعلا بعد قرون كثيرة من نزول القرآن .. فكأن هؤلاء الذين جاءوا ليحاربوا قضية الإيمان .. قد أثبتوها وأقاموا الدليل عليها.

على أننا نقول لكل من جاء يتحدث عن خلق السموات والأرض وخلق الإنسان مدعياً أن الله ليس هو الخالق .. نقول له: أشهدت الخلق ؟.. فإذا قال: لا .. نسأله : ففيم تجادل ؟

على أن قضية الخلق محسومة لله سبحانه وتعالى لأنه هو وحده سبحانه الذى قال إنه خلق .. ولم يأت أحد ولن يجرؤ أحد على أن يدعى أنه الخالق ..

وإذا كان من يفعل شيئاً يحرص على الإعلان عما فعل .. فلا يوجد شئ صغير اخترعه البشر فى الدنيا .. إلا ويحرص صاحبه على الإعلان عن نفسه.

الله وحده الخالق

فإذا كان ذلك الذى اخترع المصباح قد حرص على أن يعرف العالم كله اسمه وتاريخه وقصة اختراعه .. أيكون الذى أوجد الشمس غافلا عن أن يخبرنا أنه هو الذى خلقها .. وإذا كانت هناك قوة أخرى قد أوجدت أفلا تعلن عن نفسها ؟

إذن فقضية الخلق محسومة لله سبحانه وتعالى .. لأنه وحده سبحانه الذى قال إنه خلق .. حتى يأتى من يدعى الخلق .. ولن يأتى .. فإن الله سبحانه هو وحده الخالق بلا جدال .. وحتى الكفار لم يستطيعوا أن يجادلوا فى هذه القضية .. ولذلك يأتى القرآن فى سورة العنكبوت فيقول :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٦١) ﴾

(الآية ٦١ من سورة العنكبوت)

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾

(جزء من الآية ٦٣ من سور العنكبوت)

وهذه الآيات نزلت في الكافرين والمشركين .. وهم رغم كفرهم وإشراكهم لم يستطيعوا أن يجادلوا في خلق الكون والإنسان .

إذن فقضية الخلق محسومة لله .. لأنه سبحانه وتعالى هو الذي خلق.. وهو الذي أخبرنا بأنه هو الذي خلق .

ولكن القضية لا تقف عند الكون وحده .. بل تمتد إلى كل ما في الدنيا، حتى تلك الأشياء التي يقدر عليها الإنسان .. فأصل الوجود كله .. بكل ما فيه من خلق الله سبحانه وتعالى .. والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢) ﴾

(الآية ١٠٢ من سورة الأنعام)

ومادام الحق سبحانه وتعالى قد قال : أنه (خالق كل شئ) فما من شئ في هذا الوجود إلا هو خالقه .

ولنأخذ هذه القضية في كل ما حولنا .. في كل مافي هذا الكون لنأخذ مثلا الخشب .. شجرة الخشب التي تعطينا كل الأخشاب التي نستعملها في بيوتنا وأثاثنا إلى غير ذلك .. هذه الشجرة من أين جاءت ؟.. تسأل تاجر الخشب من أين جاءت ؟ .. يقول من السويد .. وتسأل أهل السويد يقولون من الغابة .. وتذهب إلى الغابة فيقولون لك من شتلات

نعدها .. وتسأل من أين جاءت هذه الشتلات ؟ .. من جيل سابق من الأشجار .. والجيل السابق من جيل سبقه .. وتظل تمضي حتى تصل إلى الشجرة الأولى التي أخذ منها هذا كله .. من الذي أوجد الشجرة الأولى ؟ .. إنه الله .. فلا أحد يستطيع أن يدعي أنه خلق الشجرة الأولى أو أوجدها من عدم .

فإذا انتقلنا إلى باقي أنواع الزرع لنبحث عن التفاحة الأولى والبرتقالة الأولى .. والتمرة الأولى .. وحبة القمح الأولى .. وشجرة القطن الأولى .. نجد أنها وغيرها من كل ما تنتجه الأرض .. كلها من خلق الله خلقاً مباشراً .. ثم بعد ذلك استمر وجودها بالأسباب التي خلقها الله في الكون .. قد يقال : إن هناك تهجيناً وتحسيناً وخلطاً بين الأنواع لتنتج نوعاً أكثر جودة .. نقول : إن هذا كله لا ينفي أن الثمرة الأولى مخلوقة خلقاً مباشراً من الله .. وقد يدعي بعض العلماء أنهم حسنوا أو استنبطوا أنواعاً جديدة .. نقول لهم : كل هذا لا ينفي أن الوجود الأول من الله .. وأنهم استخدموا ما خلق الله بالعلم المتاح من الله في كل ما فعلوه .. ولكن أحداً لا يستطيع أن يدعي أنه أوجد أي شئ في الأرض من عدم .. فكل هذه الاكتشافات العلمية هي من موجود .. ولا يوجد اكتشاف علمي واحد من عدم .

وإذا انتقلنا من النبات إلى الحيوان .. نجد أن كل الحيوانات والطيور والحشرات بدأت بخلق من الله سبحانه وتعالى .. ويخلق من ذكر وأنثى .. وهذه هي بداية الخلق جميعاً .. ولا يستطيع أحد أن يدعي أنه خلق من عدم ذكراً و أنثى من أي نوع من النبات أو الحيوان .. والله سبحانه وتعالى يلفتنا في القرآن الكريم فيقول :

﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

(من الآية ٤٩ من سورة الذاريات)

الله يتحدى علماء الدنيا

إننا نريدهم – ونحن نتحدى علماء الدنيا كلها – أن يأتي عالم فيقول لنا إنه أوجد من عدم .. أو أنه خلق ذكراً و أنثى من أي شئ موجود في هذا الكون .. وما أكثر الموجودات في كون الله .. وهنا تأتي الحقيقة القرآنية تتحدى في قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ ﴾

(الآية ٧٣ من سورة الحج)

هذا هو التحدي الإلهي الذي سيبقى قائماً حتى يوم القيامة .. فلن يستطيع علماء الدنيا ولو اجتمعوا أن يخلقوا ذبابة .

ولقد وصل الإنسان إلى القمر ، وقد يصل إلى المريخ ، وقد يتجاوز ذلك ولكنه سيظل عاجزاً عن خلق ذبابة مهما كشف الله له من العلم .. فلن يعطيه القدرة على خلق ذبابة .. وهذا من إعجاز الله .. لأنه وحده الذي خلق كل شيء والعلم كاشف لقدرات الله في الأرض ، ولكنه ليس موجد لشئ .. ولذلك يقول القرآن الكريم :

﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾

(من الآية ١٠٢ من سورة الأنعام)

بهذا نكون قد أثبتنا بالدليل العقلى أن الله خالق كل شئ فى الدنيا .. فإذا كان الله قد خلق من هم من دون الإنسان من نبات وجماد وحيوان فكيف بالإنسان بما له من إدراكات وعقل وفكر وتمييز .. سنتحدث عنه تفصيلا فى فصل قادم .. ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

(الآية ٣٥ من سورة الطور)

وإذا كان كل شئ فى هذا الكون من خلق الله سبحانه وتعالى .. فإن قوانين الكون أيضاً .. تلك القوانين التى يسير عليها الكون هى من وضع الله سبحانه وتعالى .. إلا ما شاء الله أن يجعل للإنسان فيه اختيارا .. فالقوانين التى يمضى عليها الكون هى من وضع الله .. والأسباب التى تتم بها الأشياء هى من وضع الله.. فالشمس والقمر والنجوم والأرض لا تتبع قوانين البشر .. بل تتبع القانون الإلهى .. والذى خلقها ووضع لها القانون الأمثل لتؤدى مهمتها فى الكون .

فالشمس لها حركة كونية .. ولها تحرك آخر فى فلك خلقه الله لها .. وكذلك القمر ، وكذلك الأرض .. وكذلك الرياح وكذلك النجوم .. ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ الرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴾

(الآيات من ١ إلى ٧ من سورة الرحمن)

إذن الشمس والقمر والنجوم تتحرك بحساب دقيق فلا تتأخر الشمس

عن موعد شروقها ثانية ولا تتقدم ثانية منذ ملايين السنين.. وكذلك القمر في دورته الشهرية.. وكذلك النجوم في حركتها.. ثم يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ۝٤٠ ﴾

(الآية ٤٠ من سورة يس)

أي أن كل هذه الأجرام لها فلك معين أو مسار معين تمضي فيه بإذن الله.ولا تستطيع البشرية كلها أن تؤخر شروق الشمس ثانية، أو أن تقدمها ثانية.. أو أن توقف دوران الأرض أو تسرع بها أو تبطيء إلى غير ذلك.

إذن فثبات قوانين الكون دليل على دقة الخالق وإبداعه وعظمته وقدرته.. وهذا مالا يستطيع أحد أن ينكره.

الثابت والمتغير

يأتي الفلاسفة ليقولوا: إن الثبات وحده لا يعطي القدرة الكاملة للحق سبحانه وتعالى .. ذلك أن الإله بقدرته لابد أن يستطيع أن يخرج عن ميكانيكيته .. فذلك هو دوام القدرة أو طلاقة القدرة .. أما بقاء الثابت على ثباته .. فإن ذلك قد يعطي الدليل على دقة القدرة وإبداع الخالق .. ولكنه لا يعطي الدليل على طلاقة القدرة ..

نقول : إن الله قد أعطى في كونه الدليل على طلاقة القدرة .. ولكنه لم يعطه في القوانين الكونية .. لأنه لو أعطاه في القوانين الكونية فأشرقت

الشمس يوماً ، وغابت أياماً .. ودارت الأرض ساعات وتوقفت ساعات .. وتغير مسار النجوم لفسد الكون .. إذن فمن كمال الخلق أن تكون القوانين الكونية بالنسبة للنظام الأساسى للكون ثابتة لا تتغير ، وإلا ضاع النظام ، وضاع معه الكون كله .. فلا يقول أحد إن ثبات النظام الكونى يحمل معه الدليل على عدم طلاقة القدرة .. بل هو يحمل الدليل على طلاقة القدرة التى تبقى هذا النظام ليصلح الكون .

والله سبحانه وتعالى لا يريد كوناً فاسداً فى نظامه .. ولكنه يريد كوناً يتناسب مع عظمة الخالق وقدرته وإبداعه .. فيبقى بطلاقة قدرته الثبات فى قوانين هذا الكون .. ويظهر بطلاقة قدرته أنه قادر على أن يغير ، ويخرق النواميس بما لا يفسد الحياة فى الكون .. ولكن بما يلفت خلقه إلى طلاقة قدرته .

ولنتحدث قليلا عن طلاقة قدرة الله فى كونه .. أول مظاهر طلاقة القدرة هى المعجزات التى أيد بها الله رسله وأنبياء ه .. ولكننا لن نتحدث عنها هنا .. فنحن مع العقل وحده .. لنؤكد بالدليل العقلى أن كل ما فى هذا الكون يؤكد أنه لا إله إلا الله .. وأنه هو الخالق والموجد .. نأتى إلى الأشياء التى تنطق بطلاقة القدرة وهى فى كل شئ .. وإذا جاز لنا أن نبدأ بالإنسان فإننا نبدأ بميلاد الإنسان أولا .. الإنسان ككل شئ فى هذا الكون يوجد من ذكر وأنثى .. فإذا اجتمع الذكر والأنثى جاء الولد .. هذا هو قانون الأسباب .. فيأتى الله سبحانه وتعالى ويلتقى الذكر والأنثى ولا يأتى الولد .. مصداقاً لقوله سبحانه وتعالى:

﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٥٠) ﴾

(الآيتان ٤٩ و ٥٠ من سورة الشورى)

إذن الله سبحانه وتعالى جعل فى قوانين الأسباب أنه متى تزوج الذكر والأنثى يأتى الولد .. ولكن أبقى لنفسه سبحانه طلاقة القدرة فجعل هناك ذكراً وأنثى يتزوجان أعواماً طويلة ولا يرزقان بالولد .. فمع قوانين الأسباب كانت هناك طلاقة القدرة .. ولم يجعلها الله سبحانه وتعالى عامة بل جعلها فى أمثلة قليلة لتلفتنا إلى طلاقة قدرته .. حتى لا نحسب أننا نعيش بالأسباب وحدها .

طلاقة القدرة فى الكون ..

ولم تقف طلاقة قدرة الله فى خلق الإنسان عند هذا الحد .. بل امتدت لتشمل كل أوجه الخلق .. فالأصل فى الإيجاد من ذكر وأنثى .. ولكن الله سبحانه وتعالى بطلاقة قدرته خلق إنساناً بدون ذكر أو أنثى وهو آدم عليه السلام .. وخلق من ذكر بدون أنثى وهى حواء .. خلقها من ضلع من آدم عليه السلام .. وخلق إنساناً من أنثى بدون ذكر وهو عيسى عليه السلام .. وهذه كلها حدثت مرة واحدة لإثبات طلاقة القدرة .. وهى لا تتكرر .. لأنها تلفتنا إلى طلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى .. وأنه ليس على قدرته قيود ولا حدود .. فهو جل جلاله خالق الأسباب .. وقدرته تبارك وتعالى فوق الأسباب .. على أن هناك أشياء كثيرة عن طلاقة قدرة الله بالنسبة للإنسان سنتحدث عنها تفصيلا فى فصل قادم .

نأتى إلى طلاقة قدرة الله تعالى فى ظواهر الكون .. لو أخذنا المطر مثلا .. الله سبحانه وتعالى بأسباب كونه جعل مناطق ممطرة فى الكون .. ومناطق لا ينزل فيها المطر .. والعلماء كشف الله لهم من علمه ما جعلهم يضعون خريطة للأسباب تحدد المناطق الممطرة وغير الممطرة .

يأتى الله سبحانه وتعالى فى لفتة إلى طلاقة قدرته .. فتجد المناطق الممطرة لا تنزل فيها قطرة ماء وتصاب بالجدب ، ويهلك الزرع والحيوان ، وقد يموت الإنسان عطشاً .. بالرغم من أن هذه المناطق كان المطر ينزل فيها وربما سار فى أنهار ليروى غيرها من البلاد التى لا ينزل فيها المطر. فنجد مثلا منابع النيل التى هى مناطق غزيرة المطر .. تأتى فيها سنوات جدب فلا يجد الناس الماء .. ونجد بلاداً كالولايات المتحدة وبلاد أوربا يصيبها الجدب فى سنوات .. ولا يحدث هذا بشكل مستمر .. بل فى سنوات متباعدة .. لو أن هذا المطر ينزل بالأسباب وحدها ما وقع هذا الجدب فى المناطق غزيرة المطر .. ولكن الله يريد أن يلفتنا إلى طلاقة قدرته وإلى أن الماء الذى ينزل من السماء ليس خاضعاً للأسباب وحدها .. ولكن الذى يحكمه هو طلاقة قدرة الله.. حتى لا نعتقد أننا أخذنا الدنيا وملكناها بالأسباب .. ولكى نعرف أن هناك طلاقة لقدرة الله سبحانه وتعالى هى التى تعطى وتمنع .. وأنه جل جلاله فوق الأسباب وهو سبحانه المسبب يغير ويبدل كما يشاء .

فإذا جئنا إلى الزرع .. ذلك الذى فيه عمل للإنسان .. نجد مظاهر طلاقة القدرة .. فالإنسان يزرع الزرع والله يعطيه كل الأسباب.. الماء موجود والكيماويات متوافرة .. والأرض جيدة .. ثم بعد ذلك تأتى آفة لا يعرف أحد عنها شيئاً ، ولا يحسب حسابها ، فتقضى على هذا الزرع

تماماً .. وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ ﴾

(الآية ٤٢ من سورة الكهف)

ونحن نعرف أن الآفات تصيب كل مكان في الأرض لا يعلو عليها علم مهما بلغ .. وهكذا حتى نعرف أن الأرض لا تعطينا الثمر بالأسباب وحدها ، ولكن بقدرة الله سبحانه وتعالى التي هي فوق الأسباب .. لكيلا نعبد الأسباب وننسى المسبب وهو الله سبحانه وتعالى .

فإذا انتقلنا إلى الحيوان نجد طلاقة القدرة واضحة .. فهناك من الحيوان ما تزيد قوته على الإنسان مرات ومرات .. ولكن الله سبحانه وتعالى قد أخضعه وذلله للإنسان .. فتجد الصبي الصغير يقود الجمل أو الحصان ويضربه .. والجمل مثلا يستطيع بضربة قدم واحدة أن يقضي على هذا الطفل ولكنه لا يفعل شيئاً ويمضي ذليلا مطيعاً ولا يرد على الإيذاء رغم قدرته على ذلك .. وتجد الكلب مثلا يحرس صاحبه ويدافع عنه لأن الله ذلله له .

فإذا جئنا إلى الذئب أو الثعلب من نفس فصيلة الكلب نجده يفترس الإنسان ويقتله .. ولو أن هذا التذليل للحيوان بقدرة الإنسان لاستطاع كما ذلل الجمل والبقرة والكلب أن يذلل الذئب والثعلب وغيرهما من الحيوانات .. ولكن الله يريد أن يلفتنا إلى أن هذا التذليل بقدرته سبحانه وتعالى .. إن الثعبان الصغير وهو حشرة ضئيلة الحجم يقتل الإنسان .. دون أن يستطيع أن يذلله .. وهذه علامة من علامات طلاقة القدرة في

الكون .. ليلفتنا الحق سبحانه وتعالى إلى أن كل شئ بقدرته ومنه .. وليس بالأسباب وليس بقدرة الإنسان .. بل إن الله تبارك وتعالى هو الذى خلق وهو الذى جعل هذا فى خدمة الإنسان .. وهذا يمكن أن يؤذى الإنسان .. وجعل موازين القوة والضخامة تختل .. حتى لا يقال إن هذا الحيوان قوى بحجمه أو بالقوة التي خلقت له .. بل جعل أضعف الأشياء يمكن أن يكون قاتلا للبشر .

الجمـــاد والحيـــاة

ثم نأتى إلى الجماد .. الأرض من طبيعتها ثبات قشرتها حتى يستطيع الناس أن يعيشوا عليها ، ويبنوا مساكنهم ، ويمارسوا حياتهم .. ولو أن قشرة الأرض لم تكن ثابتة لاستحالت الحياة عليها ، ولاستحالت عمارتها .. والله سبحانه وتعالى يريد منا عمارة الأرض .. ولذلك جعل قشرتها ثابتة صلبة .. ولكن فى بعض الأحيان تتحول هذه القشرة الثابتة إلى عدم ثبات .. فتنفجر البراكين ملقية بالحمم .. وتحدث الزلازل التى تدمر كل ما على المكان الذى تقع فيه .. ويتقدم العلم ويكشف الله بعضا من علمه لبعض خلقه ما يشاء .. ولكن يبقى الإنسان عاجزاً عن أن يتنبأ بالزلازل .. فيأتى الزلزال فى أكثر بلاد الدنيا تقدماً ليفاجئ أهلها دون أن يشعروا بقرب وقوعه .. بل إنه من طلاقة قدرة الله أنه أعطى بعض الحيوانات .. التى ليس لها عقول تفكر ، ولا علم ولا حضارة .. أعطاها غريزة الإحساس بقرب وقوع الزلزال .. ولذلك فهى تسارع بمغادرة المكان أو يحدث لها هياج .. إن كانت محبوسة فى أقفاص أو حظائر مغلقة .. وذلك ليلفتنا الله سبحانه وتعالى إلى أن العلم يأتى منه سبحانه ولا يحصل عليه الإنسان بقدرته .. فيعطى سبحانه من لا قدرة له على الفكر والكشف

العلمي مالا يعطيه لذلك الذى ميزه بالعقل والعلم .

لماذا ؟ لنعلم أن كل شئ من الله فلا نعبد قدراتنا ..ولا نقول : انتهى عصر الدين والإيمان وبدأ عصر العلم .. بل نلتفت إلى أن الله يعطى لمن هم دوننا فى الخلق علماً لا نصل نحن إليه .. فنعرف أن كل شئ بقدرته وحده سبحانه وتعالى .

ومظاهر طلاقة قدرة الله فى كونه كثيرة .. فهو وحده الذى ينصر الضعيف على القوى ، وينتقم للمظلوم من الظالم .. وكل ما فى الكون خاضع لطلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى.. على أن طلاقة القدرة فى تغيير ما هو ثابت من قوانين الكون إنما يأتى عند نهاية الحياة على الأرض .. حينئذ يغير الله القوانين كلها ويحدث الدمار وتنتهى الحياة..

وذلك مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ﴿٤﴾ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ ﴿٥﴾ ﴾

(الآية من ١ - ٥ من سورة الانفطار)

وهناك آيات كثيرة فى القرآن الكريم .. تنبئنا بما سيحدث عندما تقوم القيامة.

إذن الذين يقولون : إن عظمة الله سبحانه وتعالى فى خلقه هى الثبات والدقة التى لا تتأثر بالزمن .. والتى تبقى ملايين السنين دون أن تختل ولو ثانية واحدة ، نقول لهم : هذه موجودة وانظروا إلى القوانين الكونية ودقتها وكيف أنها لم تتأثر بالزمن .. والذين يقولون : إن عظمة الحق سبحانه وتعالى فى طلاقة قدرته فى كونه .. وألا تكون الأسباب مقيدة

لقدرة الخالق والمسبب .. نقول لهم : انظروا فى الكون وحولكم مظاهر طلاقة القدرة .. وليست هذه المظاهر مختفية أو مستورة .. بل هى ظاهرة أمامنا جميعاً .. وليست فى أحداث بعيدة عن حياتنا .. بل هى تحدث لنا كل يوم .

وإذا صاح إنسان من قلبه : (ربنا كبير) .. أو (ربنا موجود) .. أو (ربك يمهل ولا يهمل) .. فمعنى ذلك أنه رأى طلاقة قدرة الله، تنصف مظلوماً، أو تنتقم من ظالم .. أو تنصر ضعيفاً على قوى .. أو تأخذ قوياً وهو محاط بكل قوته الدنيوية .

فالإنسان لا يتذكر قدرة الله عندما يرى الكون أمامه يمضى بالأسباب، ذلك أن هذا شئ عادى لا يوجب التعجب .. فانتصار القوى على الضعيف لا يثير فى النفس اندهاشاً .. والأجر المعقول للعمل شئ عادى .. والأحداث بالأسباب هو مايعيشه الناس .. ولكننا نتذكر قدرة الله إذا اختلت الأسباب أمامنا .. وجاء المسبب ليعطينا ما لا يتفق مع الأسباب ولا مع قوانينها .

فى هذا الفصل استعرضنا بعض أسباب الوجود التى تثبت قضية الإيمان بالدليل العقلى .. ولكن الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

(من الآية ٢١ من سورة الذاريات)

على أن بعض الناس ينظر إلى نفسه فلا يرى شيئاً .. فما معنى هذه الآية الكريمة ؟.

هذا هو موضوع الفصل القادم .

الفصل الثانى :

يقول الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز :

وفى أنفسكم أفلا تبصرون

هذه الآية يمر عليها كثير من
الناس دون أن يتنبهوا إلى
الفيوضات والمعانى التى
تحتويها. بل إنك إذا سألت
إنساناً غير مؤمن ماذا
يعرف عن هذه الآية الكريمة
يقول لك : لاشئ فى نفسى

فأنا إنسان أولد وأكبر وأتزوج وأعمل وتنتهي حياتي وأموت .. فماذا في نفسي ؟ .. نقول له : لو أنك تدبرت لعلمت أن في نفسك آيات وآيات .. سنذكر في هذا الفصل بعض هذه الآيات ، لأن آيات الله في الإنسان كثيرة ومتعددة .

أول شيء هو قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) ﴾

(الآية ١٧٢ من سورة الأعراف)

إذا قرأت هذه الآية يقول لك غير المؤمن : لم نشهد شيئاً ولم نر شيئاً ولم نحس شيئاً .. ونقول : بل شهدت .. وأنت شهيد على نفسك في ذلك .. كيف ؟ .. الله سبحانه وتعالى عرفنا أنه موجود .. وعرفنا بشهادة ربوبية وليس بشهادة ألوهية .. ومعنى ذلك أن المؤمن والكافر يعلم في نفسه وجود الله .. ولكن الكافر يحاول أن يستر هذا الوجود ليحقق شهواته وما يريد ولو على حساب حقوق الآخرين .. ولننظر إلى ما أحل الله وما حرم الله .. ثم لننظر إلى النفس البشرية على عمومها لنرى ماذا تفعل .. ولنعرف يقينا أن هذه النفس تعرف ما أحل الله وتستريح له وتنسجم معه .. وتعرف ما حرم الله فيصيبها انزعاج واضطراب وذعر وهي ترتكبه .. وأول هذه الأشياء هو العلاقة بين الرجل والمرأة.

إذا جاءك رجل وقال : أريد أن أختلي في حجرة ابنتك .. ماذا تفعل به ؟ .. قد تقتله .. وإن لم تقتله فقد تضربه .. ويعينك على ذلك كل الناس.. وسيجد فعله هذا استنكاراً عاماً من المؤمن وغير المؤمن .

فإذا جاءك هذا الرجل وقال : أريد أن أتزوج ابنتك فإنك تستقبله بالترحاب وتدعو الناس للترحيب به .. وتعلن النبأ على الجميع .. وتعقد القران ، وبعد عقد القران تتركه هو وابنتك في الحجرة .. وتوافق على الخلوة بينهما .

ما الفرق بين الحالتين ؟ بعض الناس يقول إنها وثيقة الزواج التي تحرر ... فهل الفرق هو الورقة فعلا ؟ .. لا .. الفرق هو الحلال والحرام .. ما أحله الله وما حرمه .. ما أحله الله ينسجم مع النفس البشرية ويقبله كل الناس .. وما حرمه الله تستنكره كل نفس بشرية وتنفعل ضده .

كيف يحدث هذا ؟ .. لأنك عرفت يقينا منهج الحق والباطل .. وممن عرفته ؟ .. من الذي وضعه .. ليس هذا فقط .. بل انظر إلى إنسان في شقة مع زوجته .. مطمئن تماماً يدخل أمام الناس إلى بيته .. وإذا طرق الباب قام وفتح للطارق .. وإذا جاء صديق استقبله باطمئنان .. وإذا خرج إلى الشارع أخذ زوجته معه أمام الناس جميعاً .. انظر إلى نفس الشخص مع زوجة غيره .. يغلق الأبواب والنوافذ حتى لا يراه أحد .. وإذا طرق الباب انزعج ولا يفتح .. وإذا جاءه صديق أصيب بالذعر .. وإذا خرج إلى الشارع مشى بعيداً عنها .

ما الفارق بين الحالتين؟ .. الفارق هو الحلال والحرام اللذان تعرفهما كل نفس ، حتى تلك التي لم تقرأ شيئاً عن الدين .. لأن الله قال :

﴿ وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى ﴾

فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى أوجه الحياة .. لص يريد أن يسرق .. يتأكد أولا من أن الطريق خال .. ولا يجرؤ أن يفعل ذلك إلا فى الظلام أو بعيداً عن الناس .. وبمجرد أن يأخذ ما يريد أن يسرقه ينطلق بسرعة وهو يتلفت يميناً ويساراً خوفاً من أن يراه أحد .. ثم يبحث عن مكان يخفى فيه المسروقات .. انفعالات رهيبة فى داخله تؤكد أنه يعرف أن ما يفعله إثم وخطيئة .. لكن الإنسان عندما يريد أن يدخل بيته ليأخذ شيئاً دخل أمام الناس جميعاً ومشى باطمئنان .. وحمل الشئ الذى يريده وهو لا يخشى أن يراه أحد .. ذلك أنه يحس فى داخله بأنه يفعل شيئاً لا يحرمه الله .. الذى يأخذ رشوة مثلا .. يتلفت حوله يميناً ويساراً ويسارع بإخفائها .. والذى يقبض مرتبه يفعل ذلك أمام الدنيا كلها .

الإنسان .. وقوانين السماء

وهكذا كل مقاييس الخير والشر .. مقاييس الخير تنسجم معها النفس البشرية ، وتحس بطبيعتها وراحتها .. ومقاييس الشر تضطرب معها النفس البشرية وتحس بالفزع والذعر وهى ترتكبها .. من الذى وضع فى النفس هذا .. أنها تعرف يقينا هذه المقاييس التى وضعها الله لمنهجه فى كونه .. ومن الذى أعلم هذه النفس أن هناك مقاييس .. وإن هناك إلهاً .. إلا أن تكون الآية الكريمة :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ ﴾

(من الآية ١٧٢ من سورة الأعراف)

هى التفسير الوحيد لمقاييس الخير ومقاييس الشر التى وضعت فينا بالفطرة .. وبما أن هذا عطاء ربوبية، فإن الله سبحانه وتعالى رب الناس كل الناس .. من آمن به ومن لم يؤمن .. ولذلك وجدت فى البشر كلهم .

نأتى بعد ذلك إلى نقطة ثانية .. الله سبحانه وتعالى غيب .. وغير المؤمن يقول أنا لا أؤمن إلا بما أرى .. أما ما هو غيب عنى فلا أؤمن به لأننى لم أشهده .. والإيمان غير الرؤية .. فأنت إذا رأيتنى أمامك لا تقول أنا أؤمن أنى أراك .. لأن الرؤية عين يقين ليس بعدها دلالة .. ولا تقول أنا أؤمن أننى أجلس مع أصدقائى ولا تقول إنى أؤمن أنى أرى الشمس مثلا ذلك هو عين اليقين .. وهناك علم يقين ، وعين يقين ، وحق يقين .. فعلم اليقين هو الذى يأتيك من إنسان تثق فيه وفى أنه صادق فى كلامه .. فإذا قال لك إنسان مشهود له بالصدق أنا رأيت فلاناً يفعل كذا .. فأنت تصدق بوثوقك بمن قال .. فإذا رأيت الشئ أمامك يكون ذلك عين اليقين. فالذى يقول لك مثلا إن هناك مخلوقاً نادراً في بلدة كذا فأنت تصدقه ، لأنك تثق فيه .. فإذا جاء معه بهذا المخلوق وأظهره أمامك أصبح علم اليقين عين يقين .. فإذا لمسته بيدك وتحسسته وتأكدت من أوصافه يكون هذا حق اليقين .

ولذلك فإن الحق سبحانه وتعالى حين يخاطب غير المؤمنين عن جهنم يقول :

﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۝٧ ﴾

(الآيات من ٥ - ٧ من سورة التكاثر)

أى أن كلا منا سيرى جهنم بعينيه فى الآخرة .. ثم يقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ ﴾

(الآيات من ٩٢ – ٩٥ من سورة الواقعة)

أى أن الكفار حين يدخلون النار ويعذبون فيها سيكون ذلك حق يقين .. أى واقعاً يعيشونه وليست مجرد رؤية .

هذه هى الرؤية .. أما الإيمان فهو تصديق بغيب .. فأنت تقول :أنا أؤمن أن ذلك حدث كما أراك أمامى .. أى أنك لم تشهد ما حدث .. ولكنك وصلت بالدليل والاقتناع إلى أنه قد حدث .. وأصبح فى نفسك كيقين الرؤية تماماً .

أين الروح فى جسدك

غير المؤمن يقول إن الله غيب وأنا لا أصدق إلا ما أرى .. نقول : قبل أن تعلن هذا الكلام تذكر الآية الكريمة :

﴿ وفى أنفسكم أفلا تبصرون ﴾

وأنت فى جسدك الروح هى التى تهبك الحياة والحركة .. فإذا خرجت الروح من جسدك سكنت الحركة وانتهت الحياة .

إذن كل منا يعرف يقينا أن هناك شيئاً اسمه الروح .. إذا دخل الجسد أعطاه الحياة .. وإذا خرج منه توقفت الحياة .. من منا رأى الروح ؟.. بل من منا يعرف أين موقعها من الجسد ؟ .. أهى فى القلب

الذى ينبض ؟ .. أو فى العقل الذى يفكر ؟ .. أو فى القدم التى تتحرك ؟ أو فى العين التى ترى ؟ .. أو فى الأذن التى تسمع ؟ .. أين مكانها بالضبط ؟ .. وما هى الروح ؟ ..

أكبر علماء الدنيا لا يعرف عنها شيئاً .. حتى ذلك العالم السويسرى الذى جاء بالناس وهم يحتضرون ووضعهم على ميزان دقيق .. وعندما أسلموا الروح وجد أن الجسد قد فقد من وزنه بضعة جرامات لحظة خروج الروح .. فأعلن أن الروح لها وزن .. أو أن لها كياناً مادياً وإن كان لا يزيد على جرامات .. نقول إن هذا غير صحيح .. لأن هذه الجرامات قد تكون هى وزن الهواء الذى خرج من الرئتين ، ولم يدخل غيره .. أو تكون بسبب توقف سريان الدم بالجسم .

إذن الروح - وهى موجودة فى جسدك - غيب عنك .. فأنت لا تعرف ما هى ؟ .. ولا أين هى ؟ وأنت لا تعرف كيفية سريانها فى الجسم .. وإلا قل لنا إذا أصيب إنسان فى حادث وبترت ساقاه .. أين ذهبت الروح التى كانت فى الساقين تعطيهما الحياة والحركة ؟ ولكنك تستدل على وجود الروح مع أنها غيب عنك بآثارها فى أنها تعطى الحياة والحركة لجسدك .. ولكن هل وجود الروح فى المخلوق الحى وجود يقينى .. يقول أكبر علماء الدنيا الماديين : نعم .. ولا يستطيع أحد أن ينكر أن الجسد الحى فيه الروح ، وأن الجسد الميت قد خرجت منه الروح .

إذن فوجود الروح علم يقين مستدل عليه بآثارها .. فهل إذا كان وجود الروح فى جسدك يؤكد لك يقينا أنها موجودة مستدلا على ذلك بالحركة والحياة التى تعطيها فى الجسد .. ألا يدل هذا الكون كله بما فيه من

إعجاز الخلق على وجود الله يقينا .. ألا تنظر إلى جسدك والروح فيه ثم تنظر إلى الكون لتستخدم نفس القانون .. أم أنك فى جسدك لا تستيطع أن تجادل .. وفى الكون بعظمته تجادل ؟! .. أليس هذا كذباً على النفس واحتقاراً لمهمة العقل .. ألا نتدبر فى معنى الآية الكريمة :

﴿ وفى أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ .

الانسان وقدراته

ثم نأتى بعد ذلك إلى النقطة الثالثة .. غير المؤمن يقول أنا سيد نفسى، أنا حاكم نفسى أفعل بها ما أشاء .. نقول : هذا افتراء على الله .. فجسدك هو ملك لله .. وهو يفعل فيه ما يشاء إلا ما شاء أن يجعلك فيه مختاراً .. وإذا لم تصدق ذلك فانظر إلى جسدك .

القلب ينبض .. فهل أنت الذى تجعله ينبض ؟ .. وهل تستطيع أن توقفه قليلا ليستريح ؟ .. أو تجعله إذا توقف أن يعود إلى الحركة مرة أخرى ؟ .. وكيف يمكن أن يتبع القلب لإرادتك ، وهو ينبض ، وأنت نائم مسلوب الإرادة .. ومن الذى يعطى الأمر للقلب لكى يقلل نبضاته وأنت نائم ، لأنك متوقف عن الحركة .. ويجعله يسرع فى النبض وأنت تقوم بأى مجهود محتاج إلى سرعة حركة الدم فى الجسم .

وحركة التنفس هل أنت الذى تقوم بها ؟ .. وإذا قلت نعم فكيف تتنفس وأنت نائم ؟ .. إنها حركة تتم بالقهر لا سلطان لك عليها .. فإذا صدر لها الأمر الإلهى بأن تتوقف فلا أحد يستطيع أن يعيدها .

ومعدتك وما يحدث فيها من تفاعلات لهضم الطعام وأنزيمات تفرز من غدد متعددة .. أيتم هذا بإرادتك ..

وأمعاؤك وحركة الطعام فيها وامتصاص ما يفيد الجسم وطرد ما لا يفيده .. أيحدث هذا بإرادتك أم أنها تتم دون أن تدرى .. وكرات الدم البيضاء وهي تتصدى الميكروبات التي تدخل جسدك فترسل كرات معينة لتحدد ما يمكن أن يقضى على الميكروبات .. ثم يقوم النخاع بتصنيع المواد المضادة فتقضى على الميكروب فعلا .. أتدرى أنت شيئاً عن هذه العملية ؟ .. إن كل هذا مقهور لله سبحانه وتعالى .. يقوم بعمله دون أن يتوقف .. وبدون أن تدرى أنت عنه شيئاً .

ومن رحمة الله سبحانه وتعالى .. أنه خلق هذه الأجهزة البشرية مقهورة له .. وإلا لما استطاع الإنسان الحياة ، ولا العمل ، ولا أداء مهمته في عمارة الكون .. وإلا فقل لى بالله عليك .. لو أن قلبك يخضع لإرادتك كيف يمكن أن تنام ؟ .. إنك ستظل يقظاً ليستمر القلب في النبض .. لو أن معدتك تخضع لإرادتك لاحتجت إلى ساعات طويلة بعد كل وجبة لتتم عملية الهضم .. لو أن الدورة الدموية تخضع لإرادتك .. لما استطاع عقلك أن يستمر في الحياة وهو مشغول بمئات العمليات التي تتم كل دقيقة .

وهكذا شاءت رحمة الله أن يجعل كل هذا بالقهر حتى تستطيع الحياة والسعي في الأرض ، وحتى يمكنك أن تتمتع بحياتك .

إذن لا تقل أنا حر في جسدي .. أو جسدي خاضع لي .. فهذا غير صحيح علمياً وبالدليل المادي .. فأنت مقهور في كل أجهزة جسدك .. حتى تلك التي أخضعها الله لإرادتك فهذا خضوع ظاهري وليس خضوعاً

حقيقياً. ولقد شاءت حكمة الله أن يرينا هذا فى الدنيا أمامنا بالدليل المادي .. فأنت تبصر بعينيك ، وحتى لا تغتر وتعتقد أن هذا الإبصار من ذاتك، وأنه خاضع لإرادتك .. أوجد الله سبحانه وتعالى من له عينان مفتوحتان ولا يبصر .. وأنت تمشي بقدميك .. ولكن الله سبحانه وتعالى أوجد من له قدمان ولا يستطيع أن يمشي .. وأنت تحرك يديك تتحرك وتفعل بهما ما تشاء .. ولكن الله سبحانه وتعالى أوجد من له يدان ولا تستطيعان الحركة .. وأنت تتحدث بلسانك وتسمع بإذنيك .. ولكن الله سبحانه وتعالى أوجد من له لسان ولا يقدر على الكلام .. ومن له أذنان ولا يسمع .. كل هذه أمثلة قليلة وضعها الله سبحانه وتعالى فى الكون .. ليلفتنا إلى أنه ليس لنا ذاتية .. وأن الأمر كله لله .

فإذا كنا نبصر بأعيننا فنحن نبصر بقدرة الله التى أعطت العين قوة الإبصار .. ونمشي بقدرة الله التى أعطت القدمين قوة الحركة .. ونسمع ونتكلم بقدرة الله التى أعطت اللسان قدرة الكلام والأذن خاصية السمع .. ولو كان هذا بذاتية منا .. ما استطاع أحد أن يسلبنا النظر أو السمع أو الحركة أو الكلام .

الاختيــار والقــدرة

بل إن الله سبحانه وتعالى أقام لنا الدليل على أنه حتى حركاتنا الاختيارية لا تتم إلا بقدرته .. مثلا إذا أردت أن تقوم من مكانك .. كم عضلة تنقبض ، وكم عضلة تنبسط ، حتى تتمكن من القيام ؟ .. ولكن نقوم من أماكننا ونحن لا ندرى أى العضلات تتحرك وأيها لا يتحرك .. بمجرد أن يخطر على بالنا لنقوم .. هذه العضلة تنبسط ، وهذه تنقبض بقدرة الله

وليس بإرادتنا .. العملية التى تتم فى عضلات الجسم ساعة القيام .. ليس لنا فى حركتها إرادة إلا أننا أردنا أن نقوم .وكذلك فى المشى والجرى وكل حركة نقوم بها .

إذن حركات الجسد كلها خاضعة لنا بإرادة الله سبحانه وتعالى .. الله هو الذى أخضعها لما نريد وجعلها تفعل ما نشاء .. وهى تفعله ، دون علمنا بذلك .. بل تفعله بشفرة إلهية وضعها الله فى أجسادنا .. فتنقبض وتنبسط العضلات فيتم كل شئ ونحن لا ندرى .

ثم يقول الإنسان أنا مسيطر على جسدى أفعل ما أشاء .. نقول لو كنت مسيطراً حقيقة لعلمت ما يجرى فيه .. ولكن هذا الجسد مسخر لك بقدرة الله .. ولذلك فهو يفعل لك ما تريد دون أن تدرى ، أو تحس كيف يتم هذا الفعل ..

الضحك والبكاء

بل أكثر من ذلك تحديا من الله سبحانه وتعالى .. يأتى الحق فى كتابه الكريم ويقول :

﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ ﴾

(الآية ٤٣ من سورة النجم)

أكثرنا يمر على هذه الآية الكريمة ولا يلتفت إليها .. ولكن هذه الآية فيها إعجاز من الله سبحانه وتعالى .. يقول الحق سبحانه تعالى :

﴿ وأنه هو أضحك وأبكى ﴾

معناه أن الضحك والبكاء من الله .. وكونه من الله سبحانه وتعالى يكون لجميع خلقه .. فالله حين يعطى ، يعطى الخلق جميعاً ذلك هو عدل

الله .. فإذا نظرت إلى الدنيا كلها تجد أن الضحك والبكاء موحدان بين البشر جميعاً على اختلاف لغاتهم وجنسياتهم .. فلا توجد ضحكة إنجليزية وضحكة أمريكية وضحكة افريقية .. بل هى ضحكة واحدة للبشر جميعاً .ولا يوجد بكاء أسيوى أو بكاء استرالى .. وإنما هو بكاء واحد .. فلغة الضحك والبكاء موحدة بين البشر جميعاً . وهى إذا اصطنعت تختلف ..

وإذا جاءت طبيعية تكون موحدة .. ولذلك إذا اصطنع أحدنا البكاء أو اصطنع الضحك فإنك تستطيع أن تميزه بسهولة عن ذلك الانفعال الطبيعى الذى يأتى من الله.

ومن العجيب أنك ترى مثلا الفيلم الكوميدى الذى صنع فى أمريكا يضحك أهل أوروبا والذى صنع فى آسيا مثلا يضحك أهل استراليا .. بل إن هناك من أعطاهم الله موهبة القدرة على إضحاك شعوب الدنيا كلها .. ولعل هناك نجوماً عالمية فى فن الكوميديا تضحك العالم كله .. وهناك أفلام عاطفية تبكى العالم كله .. فبعض الأفلام مثلا إذا قدمته بأى لغة أبكى الناس .. وهكذا تنزل أحياناً الرحمات من الله فتفيض العيون بالدموع .. وأحياناً يريد الله أن يروح عن النفوس فتتعالى الضحكات.

ولكن قد يقول بعض الناس .. إن هناك ما يضحك واحداً ولا يضحك الآخر .. وأن هناك مشهداً يبكى إنساناً ، فى حين تتحجر الدموع فى العيون فلا يبكى إنسان آخر فى نفس الموقف .. نقول إنك لم تفهم الآية .. فقوله تعالى :

﴿ وأنه هو أضحك وأبكى ﴾

ليس معناه بالضرورة أن الناس تضحك معاً وتبكي معاً .. ولكن معناه أن الإنسان لا يستطيع أن يضحك نفسه ، ولا أن يبكي نفسه عن شعور صادق وبلا اصطناع .. ولكن ذلك من الله .. ولذلك انعدمت فيه الإرادة البشرية .. فليس لكل واحد منا ضحكة تميزه .. بل نحن نضحك جميعاً بلغة واحدة .. وليس لكل واحد منا بكاء يميزه .. بل نحن نبكي جميعاً بلغة واحدة .. وليس أي واحد منا قادراً على أن يضحك ضحكة طبيعية بإرادته كأن يقول إنني سأضحك الآن فيضحك .. ولا يستطيع إنسان أن يبكى بكاء طبيعياً كأن يقول أنا سأبكي الآن فيبكي .. إلا أن يصطنع الضحك أو البكاء بشكل غير طبيعي.

ولكن يأتي الضحك والبكاء من الله حين يكون طبيعياً .. ولأنه يأتى من الله فهو موحد بين البشر جميعاً .. فإذا كنت لا تستطيع أن تضحك نفسك أو تبكي نفسك .. فكيف تدعي أنك سيد نفسك .. ولماذا لا تسلم لخالقك؟

الفعل .. والمشيئة

فإذا كان هذا هو الشأن في الجسد البشرى .. فآمن بالله الذى هو يملك كل خيوطك فإذا كنت لا تؤمن بجنته ولا تريد ثوابه .. فاخش عقابه. وإذا كنت لا تؤمن بالآخرة فاخش عقابه في الدنيا .. فهو الذى يملك كل خيوط حياتك ويستطيع أن يفعل بك ما يشاء.

على أن الله سبحانه وتعالى له لفتات أخرى .. يلفتنا لقدرته وعظمته ووجوده .. إذا كنت تتأبى على الإيمان بالله وتقول أنا سيد نفسي .. فإذا جاءك قدر الله بالمرض فامنعه عن نفسك . وقل لن امرض .. وإذا جاءك قدر الله بالموت فامنعه عن نفسك ،وقل لن أموت وإذا جاءك قدر الله في

مكروه كأن تصاب فى حادث .. أو أن تسقط من مكان فتتهشم عظامك فقل لن أسقط.

هذا هو قهر القدرة الذى لا تستطيع أن تقف أمامه .. وتقول سأفعل ولا أفعل .. لأن الله لم يعطك الاختيار فى أن تفعل أو لا تفعل فى الأقدار التى تقع عليك .. فقدر الله عليك ينفذ رغم إرادتك .. وأنت خاضع لقدر الله سواء رضيت أو لم ترض .. ففى الكون أحداث تقع لا تملك فيها اختياراً.

بعض الناس يجادل فى هذا ، ويقول : إن الإنسان القوى يستطيع أن يصنع قدره .. نقول إن القرآن الكريم قد رد على هؤلاء فى قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ ﴾

(الآية ٢٦ من سورة آل عمران)

ولابد أن نلتفت إلى قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وتنزع الملك ممن تشاء ﴾ .

أى أنه لا يوجد إنسان يتخلى عن الملك أو عن المنصب والجاه بإرادته بل لابد أن ينزع منه انتزاعاً .. ولذلك تأتى الثورات والانقلابات .. لتنزع الملك من أولئك الذين اعتقدوا أنهم ملكوا الدنيا .. وأنهم قادرون على أن يفعلوا ما يشاءون بمجرد كلمة أو أمر أو إشارة .. فيأتى الله سبحانه

وتعالى لينزع منهم هذا رغماً عنهم .. فتجد الواحد منهم الذى كان يحتمى به الناس عاجزاً عن أن يحمى نفسه .. يهرب من مكان إلى آخر .. وتجده وهو المعتز بالدنيا يتمنى لو أخذ الناس كل ما يملك ، وأبقوا على حياته .

إن هذا يحدث ليلفتنا الحق جل جلاله إلى أنه لا أحد يأخذ الملك أو المركز العالى بإرادته وتخطيطه .. وإنما هى أقدار يجريها الله على خلقه .. فإذا أتى أمر الله نزع منه كل شيء.. ولو كان الأمر بذاته لما استطاع أحد أن ينزعه منه .. ولايوجد إنسان فى هذا الكون يستطيع أن يدعى أنه فى منعة من قدر الله .. فإذا كانت هذه هى الحقيقة فهى الدليل المادى على أن الإنسان تحكمه قدرة خالقه .. وأنه لا يستطيع لنفسه نفعاً ولا ضرا إلا ما شاء الله.

فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى فعل الإنسان وعمله الدنيوى .. تجد بعض الناس يقول : إننى سأفعل كذا وكذا .. وسأقوم بتنفيذ كذا .. نقول له : إنك أعجز أن تفعل إلا أن يشاء الله .. فالفعل محتاج إلى زمان .. ومحتاج إلى مكان .. ومحتاج إلى فاعل ، ومحتاج إلى مفعول به .. وأنت لا تملك شيئاً من هذا كله .. فإذا جئنا إلى الفاعل فأنت لا تملك حتى اللحظة التى تعيش فيها .. ولا تضمن أن يمتد بك العمر ثانية واحدة .. حتى ولو كانت كل الشواهد الصحية تدل على ذلك .. ألا يوجد من لا يشكو من شيء ، ثم يسقط فجأة ميتاً ويقال جاءته جلطة فى المخ .. أو سكتة قلبية .. أو أصيب بهبوط حاد فى الدورة الدموية ؟!

هذه كلها أسباب .. ولكن السبب الحقيقى هو أن الأجل قد انتهى .. مصداقاً لقوله تعالى:

﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾

(الآية ٣٤ من سورة الأعراف)

إذن ساعة أن صدر الأمر من المسبب وهو الله جل جلاله انتهى العمر.

الإنســـان والــزمـن

ومن العجيب أنك ترى أكبر أطباء القلب يموتون بأمراض القلب .. وأكبر أطباء المخ تنتهى حياتهم بمرض فى المخ .. فإذا ملكت اللحظة التى تعيش فيها .. وبقيت حتى ساعة إتمام الفعل ، فإنك قد تصاب بمرض يقعدك عن الحركة ، فلا تستطيع إتمام الفعل .. هذا بالنسبة للفاعل ..

فإذا جئنا للزمن فأنت لا تملك الزمن ، ولكنه هو الذى يملكك .. ولذلك فإنه قد يأتى زمن التنفيذ فتفاجأ بحدث يمنعك .. كأن يصاب ابنك فى حادث مثلا .. أو يموت أحد أقربائك .. أو تضطر اضطراراً إلى سفر عاجل لمهمة ضرورية .. أو يقبض عليك فى جريمة أو فى اتهام .. إذن فأنت لا تملك الزمن ولا تستطيع أن تقول إننى فى ساعة كذا سأفعل كذا

وبالنسبة للمكان فقد تختار مكاناً لتبنى فيه عمارة مثلا .. فتأتى لتجد أن هذا المكان قد استولت عليه الدولة للمنفعة العامة .. أو قد ظهر له ورثة لم تكن تعرفهم فأوقفوا العمل .. أو أن تقرر أن يقام فى وسطه طريق .. أو أن الأرض تحتها مياه جوفيه تجعلها غير صالحة للبناء.

وإذا جئنا المفعول به فقد يرفض الذى تطلب منه العمل القيام به .. وقد لا تجد عمالا ليقوموا بالتنفيذ .. وقد لا يأتى المقاول الذى اتفقت معه

وقد لا يحضر الموظف الذي سيعطيك الرخصة لتبدأ العمل . إذن فأنت لا تملك شيئاً من عناصر الفعل كلها . ولذلك طلب منك الله سبحانه وتعالى .. أن تتأدب وتعطى الشيء لأهله، وتنسبه إلى الفاعل الحقيقى.. فقال سبحانه وتعالى:

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴾

(الآيتان ٢٣ و ٢٤ من سورة الكهف)

أى إذا أنساك الشيطان أن القوة لله جميعاً فتذكر هذه الحقيقة تتجاوزها .

نأتي بعد ذلك إلى معجزة أخرى في النفس البشرية .. تلك هى معجزة القرآن الكريم والقران فيه إعجاز كثير .. ولكننا نتحدث هنا عن الإعجاز القرآني في النفس البشرية كل انسان منا له طاقة وقدرة عقلية .. فالمتعلم طاقته العقلية أكبر ممن لم ينل حظاً من العلم أو من الأمي .. وهؤلاء جميعاً لا يمكن أن يجتمعوا عقلا ليشهدوا شيئاً واحداً .. وكل واحد منهم ينسجم مع هذا الشيء نفس الانسجام .. (فإذا كانت مثلا هناك محاضرة فى فرع من العلوم فلا يستطيع أن ينسجم معها إلا ذلك الذى يفهم فى هذا الفرع ، أما إذا دخل إليها عدد من الذين لم يقرأوا عن هذا العلم فإن الانسجام يضيع .. ذلك يحدث في كل فرع من فروع الدنيا .. ولكنك إذا جئت إلى القرآن الكريم ، وهو كلام الله ، تجد أن كل النفوس البشرية المؤمنة تنسجم معه .. لا تجمعها رابطة علم أو ثقافة .. وإنما

الذى يجمعها هو رابطة الإيمان .. (إنك تدخل إلى المسجد تجد فيه المتعلم ونصف المتعلم والعالم وقد جلسوا معاً جميعاً يستمعون إلى القرآن الكريم .. وتجدهم جميعاً منسجمين مع القرآن .. تهتز نفوسهم له .. وترتاح ملكاتهم إليه .. لا فرق بينهم ، حتى ذلك الذى لا يعرف معنى ألفاظ القرآن الكريم .. تجده جالساً يستمع وهو منسجم ويهتز من داخله وتقام الصلاة فيقف الجميع فى إنسجام وراء الإمام .. تختفى الفوارق الدنيوية بينهم .. ولكن تجمعهم رابطة الإيمان .. فيصلون جميعاً بانسجام .. لأن ملكاتهم التى خلقها الله فيهم منسجمة ومتفقة مع كلام الله .. فلا تلحظ فرقاً ولا ترى إلا مساواة إيمانية.

إعجاز القرآن

بل إنه من العجيب أن القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد فى العالم الذى يمكن أن يحفظه الإنسان بدون فهم .. فتجد الطفل الصغير عمره سبع سنوات وربما أقل من ذلك ومع هذا يحفظ القرآن كله .. أيمكن لهذا الطفل الصغير غير المكلف أن يستوعب معانى القرآن الكريم؟ ... بالطبع لا .. ولكن الإيمان الفطرى فى داخله يجعله يحفظ القرآن عن ظهر قلب ويتلوه .. لأن هذا الإيمان من الخالق ، وهو الله سبحانه وتعالى .. والقرآن هو كلام الله سبحانه وتعالى .. ولذلك تنسجم النفس البشرية وهى فى أولى مراحلها مع كلام خالقها ،أليس هذا إعجازاً نقف عنده ليلفتنا إلى الله سبحانه وتعالى .. وأنه هو الخالق وهو الموجد. فإذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

« إن الإنسان يولد على الفطرة مسلماً، وأهله يهودانه أو ينصرانه ».

قلنا صدقت يا رسول الله ، وأكبر دليل على ذلك هو انسجام فطرة الأنسان مع كلام الله.

بل وأكثر من ذلك ، يأتى الله سبحانه وتعالى ليرينا أن الإنسان هو هو وأنه سيأتى به يوم القيامة .. دون أن يختلط أحد مع أحد .. ويتساء ل الذين لا يؤمنون : كيف يمكن أن يأتى الإنسان بنفسه يوم القيامة دون أن يختلط أحد مع أحد ؟

نقول : إن الله سبحانه وتعالى رحمة بعقولنا قد أعطانا الدليل فى الدنيا .. ولن ندخل فى تكوين الإنسان ، ولا فى أشياء غيبية .. ولكننا نأخذ الدليل المادى وحده ، فالبشر وهم بلايين .. كلهم مخلوقون على هيئة واحدة .. ولكن كل واحد منهم مميز عن الآخر .. فالأب يعرف ابنه بين ملايين البشر .. والابن يعرف أباه وأمه بين ملايين الرجال والنساء بمجرد النظرة . بمجرد اللمحة تستطيع أن تخرج ابنك أو أباك أو أمك من بين الناس جميعاً هذا تمييز للإنسان لا يشترك فيه بقية الخلق .. فأنت لا تستطيع أن تميز بقرة عن بقرة أوجمل عن جمل أو أى مخلوق آخر إلا الإنسان.

ولذلك فإن رعاة الغنم يرقمونها أو يضعون عليها علامات مميزة حتى يعرفوها .. ولكنهم لا يضعون على أولادهم علامات حتى يميزوهم عن غيرهم من ملايين الصغار.

الإنســـان والتميـــيز

إننا نجد الإنسان مميزاً ببصمة الإصبع .. لا تتشابه بصمة إبهام إنسان مع إنسان آخر رغم وجود بلايين البشر .. ليس هذا فقط .. ولكن لكل منا بصمة رائحة لا تتشابه مع إنسان آخر ونحن لا ندركها .. ولكن كلب الشرطة المدرب هو الذى أعطاه الله ملكة تمييزها فيشم رائحة الأثر ، فيخرج هذا الإنسان من بين العشرات بل المئات .

وكلما أعيدت التجربة قام كلب الشرطة بإخراج نفس الشخص .. بل إنه مع تقدم العلم وجد أنه لكل إنسان بصمة صوت تميزه عن الآخر .. وبصمة فك خاصة بأسنانه .. كل هذا ليلفتنا الحق سبحانه وتعالى إلى أنه ميز كلا منا بميزات لا يشترك فيها مع أحد حتى يأتى به يوم البعث هو هو نفسه .

بل إن الله سبحانه وتعالى وضع فينا العدل بالنسبة لأبنائنا رغماً عنا فتجد الأب يحب أصغر أبنائه أكثر من الكبار .. لماذا ؟ .. لأن الابن الصغير مهما امتد العمر بالأب سيقضى فى رعاية أبيه سنوات أقل من الكبار .. ولذلك أعطاه حناناً أكبر ليعوضه عن هذه السنوات .. حتى يكون خير الأب وعطفه قد وزعا على ابنائه بالعدل ، فمنهم من أخذ عطفا أقل وسنوات أكثر ، ومنهم من أخذ سنوات أقل وعطفاً أكثر .

إلى هنا نكون قد وصلنا إلى بيان بعض الفيوضات التى شملتها الآية الكريمة:

﴿ وفى أنفسكم أفلا تبصرون ﴾.

فالآية أعطتنا بوضوح الدليل المادى من النفس البشرية بأنها تعرف الله بالفطرة .. وتعرف الخير والشر بالفطرة .. مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ ﴾

(الآية ٨ من سورة الشمس)

وإن هذه النفس بالدليل المادى لا تملك لذاتها نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله .. وإنها منسجمة مع الإيمان بفطرة خلقها .. ومنسجمة مع كلام الله بفطرتها الإيمانية.

على أن الدليل المادى لوجود الله لا يشمل النفس البشرية وحدها .. بل يشمل كل شىء فى الكون .. فكل ما فى الكون ينطق بأنه لا إله إلا الله .. وفى كل شىء دليل .. وسنبدأ فى الفصل القادم بالدليل الغيبى.



الفصل الثالث :

الدليل الغيبي

قد يكون عنوان هذا الفصل فيه
تناقض ظاهري مع موضوع
الكتاب .. ذلك أننا لا نتحدث
هنا عن الغيب .. ولكننا نتحدث
عن الأدلة المادية التي يتحكم
فيها العقل وحده ويشهد بها ..
ولذلك قد يقال ما دمتم
تتحدثون عن الدليل العقلي على
وجود الله ..فلماذا لجأتم إلى
الغيب ؟ ..

نقول : إننـا لم نلجأ إلى ما هو غيب كالملائكة والجنة والنار وحياة البرزخ إلى غير ذلك مما يغيب عن عقولنا .. ولكننا نأخذ من الدليل المادى ما يؤكد لنا أن الغيب قائم وموجود .. وأننا إن لم ندركه بعقولنا وأبصارنا ، فليس معنى ذلك أنه غير موجود يؤدى مهمته فى الحياة .. ذلك أن وجود الشئ مختلف تماماً عن إدراك هذا الوجود .. فقد يوجد الشئ وأنت لا تدركه .. ومع ذلك فهو يؤدى مهمته فى الحياة .. ثم تأتى نفحة من رحمة الله تجعلنا ندرك بعقولنا أن ما حسبنا أنه ليس موجوداً إنما هو موجود وقائم ويؤدى مهمته .

وقبل أن نبدأ الحديث لابد أن نعرف أن هناك نوعين من الغيب .. غيباً نسبياً ، وغيباً مطلقاً .. الغيب النسبى لا يعتبر غيباً فى علم الله وحده .. بل يمكن أن يعرفه البشر.. والغيب المطلق لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى .ما هو الغيب النسبى ؟ .. هو ما لا تعلمه أنت ولكن يعلمه غيرك .. هب أن رئيس دولة ما اختار أحد الناس ليتولى منصب الوزارة .. ولكن هذا الاختيار لم يبلغ صاحبه .. إذن فهو غيب عن صاحبه .. ولكنه معلوم لرئيس الدولة ومكتبه إلى آخره .. ولنفرض أن لصاً سرق من بيتك شيئاً .. أنت حين اكتشفت السرقة لا تعرف من الذى سرق .. ولا أين المسروقات ولكن الذى سرق يعرف نفسه ويعرف أين أخفى المسروقات .. إلخ .

إذن هذا غيب نسبى .. أى بالنسبة لك ولكنه معلوم بالنسبة لغيرك .. هذا الغيب قد يعرفه بعض الناس .. ولكن الغيب المطلق لا يعرفه أحد .

الله سبحانه وتعالى كشف لنا أنه يعلم الغيب النسبى والغيب المطلق .. وأعطانا الدليل على ذلك حتى نعرف أن ما سيقع فى هذا الكون موجود

عند الله ، ومعلوم ومعد ، بحيث يخرج إلى الدنيا بكلمة كن .. ولذلك فإننا لابد أن نلتفت إلى آيتين كريمتين في القرآن الكريم .. الآية الأولى قوله تعالى :

﴿ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾

(الآية ٨٢ من سورة يس)

أي أن الله سبحانه وتعالى حين يريد أن يظهر لنا شيئاً يمارس مهمته في الحياة .. فإنما يقول له كن .. فيخرج بكلمة كن من علم الله سبحانه وتعالى إلى كون الله فنعرفه. في هذه الآية لابد أن نلتفت إلى قوله تعالى : ﴿ يقول له ﴾ وما دام الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ يقول له ﴾ .. فمعنى ذلك أن هذا الشيء موجود .. وإلا لما قال الله : ﴿ يقول له ﴾ .. لأن الخطاب هنا لشيء موجود فعلا .

إذن فكل أحداث الكون وكل أحداث الدنيا والآخرة موجودة في علم الله سبحانه وتعالى .. فإذا قال لها : ﴿ كن ﴾ خرجت إلى علم الناس .. ولذلك فإن يوم البعث مثلا موجود بكل تفاصيله وأحداثه في علم الله .. والجنة موجودة ، والنار أيضاً موجودة .. لذلك إذا قيل في الحديث الشريف : «هذا رمضان قد جاء ، تفتح فيه أبواب الجنة ، وتغلق فيه أبواب النار ، وتغل فيه الشياطين » .

قد يتساءل البعض كيف يحدث هذا والجنة لم تخلق بعد ، والنار لم تخلق كذلك .. لأن وقتهما لم يأت .. نقول لا .. إنهما مخلوقتان في علم الله بكل ما فيهما .. فإذا جاء وقتهما أظهرهما الله .. وفي هذا يلفتنا الحق

سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ﴾

(من الآية ١٨٧ من سورة الأعراف)

أى أن الساعة بكل أحداثها موجودة عند الحق سبحانه وتعالى .. ولكنه لا يظهرها إلا عندما يشاء .. إذن فكل شئ موجود فى علم الله وهو يظهره متى شاء وكيف شاء .

الآية الثانية قوله تعالى :

﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾

(الآية الأولى من سورة النحل)

كيف يقول الحق سبحانه وتعالى ﴿ أتى ﴾ أى حدث باستخدام الزمن الماضى ، ثم يقول : لا تستعجلوه باستخدام الزمن المستقبل .. أليس هذا تناقضاً ؟ .

الماضى والحاضر

نقول : إنه لا يوجد أى تناقض لأن هذا الأمر الذى تتحدث عنه الآية الكريمة أتى فى علم الله .. أى تقرر .. ومادام قد تقرر فإنه حادث بلاشك لأنه لا توجد قوة ولا قدرة تستطيع أن تمنع ما يريده الله .. والله سبحانه وتعالى دائم الوجود لا تأخذه سنة ولا نوم حتى تظن أنه قد يغفل عن شئ دائم القوة والقدرة .. وكل من فى هذا الكون يستمد قدرته من الله سبحانه وتعالى .

ولذلك مادام الله هو القاهر فوق عباده جميعاً .. فمتى قال : ﴿ أتى ﴾ يكون قد حدث فعلا .. أما قوله : ﴿ فلا تستعجلوه ﴾ أى لا تستعجلوا ظهوره وخروجه إلى دنياكم المادية .. أو لا تستعجلوا ظهوره لكى يصبح مشهوداً لديكم .. وهكذا نرى أنه لا يوجد أى تناقض أو تضارب فى قوله تعالى : ﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه ﴾

نأتى بعد ذلك إلى الدليل الغيبى على وجود الله .. ونبدأ الحديث بالدليل من الإنسان أولا ، ومن الأحداث ثانياً ، ومن قضايا الكون ثالثاً .. فتلك هى النقاط الثلاث التى سنتحدث عنها فى هذا الفصل .. وإن كانت هناك نقاط كثيرة لا يتسع المجال لها .. لأننا سنتناول الدليل الكونى ، والدليل الاحصائى ، والدليل العلمى وغيره من الأدلة .. ونحن هنا نعطى أمثلة يستطيع الناس أن يقيسوا عليها بعد ذلك .. لأنه كما قلنا كل شئ فى هذا الكون يشهد أنه لا إله إلا الله .. ويشهد بالدليل المادى .

إذا أردنا أن نبدأ بالنفس البشرية .. فإن الله سبحانه وتعالى أعطانا الدليل على أنه يعلم غيب النفس البشرية وما تخفيه .. وإذا أردنا أن نبدأ بالنفس البشرية فإننا نبدأ بأن الله يسيطر على غيب هذه النفس سيطرة كاملة .. ولذلك قال الله تعالى فى القرآن الكريم :

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ ﴾

(الآية ٧ من سورة القصص)

إذن خواطر النفس البشرية هي في يد الله سبحانه وتعالى .. والعقل البشرى هو في يد الله سبحانه وتعالى يعطيه من الخواطر ما يشاء ، ويمنع منه ما يشاء ولكن الإنسان خلق حراً في الاختيار .. نقول نعم حر فيما أراد له الله أن يكون حراً فيه وهو المنهج .. ولكنه ليس حراً حرية مطلقة رغم أن الكثيرين ينكرون هذه الحقيقة .. فالإنسان حر .. نعم فيما قال له الله فيه افعل ولا تفعل .. هذا نطاق الحرية الأولى في تطبيق المنهج وهو حر في أن ينطق شهادة الإيمان أو أن ينطق شهادة الكفر والعياذ بالله .. وهو حر في أن يفعل ما وضعه الله في منهجه وفي تطبيق هذا المنهج .. ومنهج الله يشمل كل نشاطات الحياة .

فالإسلام ليس مجرد شهادة بأنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا .. تلك هي أركان الإسلام .. الأركان التي بني عليها هذا الدين .

الإسلام أشمل من ذلك بكثير .. ولكن العقل البشرى فيما لا يخص المنهج خاضع لطلاقة قدرة الله .

ما هو الدليل على القدرة ؟ ! .

ولكن ما هو الدليل ؟ .. نقول اقرأ قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥ ﴾

(سورة المسد)

هذه السورة الكريمة نزلت في أبي لهب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم .. وقد كان كافراً رفض الإيمان .. محارباً لدين الله ورسوله .. نزلت هذه السورة وأبو لهب كافر .. وكثير من صناديد قريس وزعماء مكة كانوا كفاراً .. ثم هداهم الله فأسلموا .. مثل أبي سفيان وخالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل وغيرهم .. وكان من الممكن أن يكون أبو لهب من هؤلاء وأن يهتدي للإسلام .. ولو حدث ذلك لانهدمت قضية الإيمان كلها .. لأن القرآن قال إن أبا لهب سيموت كافراً .. ولكن هناك شيئاً آخر لابد أن نتنبه إليه وهو أن هذا الإخبار بغيب .. بأن أبا لهب سيموت كافراً جاء في أمر اختياري أي يخضع ظاهرياً لإرادة أبي لهب .

ماذا كان يمكن أن يحدث لو أن أبا لهب ذهب إلى مكان يتجمع فيه أهل مكة أو دعا زعماء مكة إلى اجتماع وقال لهم : لقد قال عني محمد في قرآن ادعى أنه ينزل من السماء إنني سأموت كافراً وسأدخل النار ولكني أقول أمامكم أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله .. لتعلموا أن هذا الكلام غير صادق .. وأن محمداً لا يوحي إليه بشئ .

ماذا كان يمكن أن يحدث .. لو نطق أبو لهب بالشهادتين رياء أو نفاقاً ليهدم قضية الدين .. ولكن حتى هذا التصرف الذي كان يمكن أن يخدم قضية الكفر التي كان أبو لهب أكبر أقطابها .. حتى هذا الكلام لم يخطر على عقل أبي لهب ولم يقله .. أليس هذا دليلا على أن ما يريده الله لابد أن يحدث .. أيوجد تحد أكبر من أن يعطي الله أكبر أعداء الإسلام القضية التي يهدم بها هذا الدين .. ثم لا يستطيع أن يستخدمها .. أليس هذا

دليلا على أن ما يقضى به الله غيباً لابد أن ينفذ مهما بدا غير ذلك .. وهل يوجد دليل أكبر من ذلك على أن الغيب عند الله لابد أن يقع ؟ .

ثم نأتى بعد ذلك إلى دليل آخر .. عندما تحولت القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة .. نزل القرآن يقول :

﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ﴾

(من الآية ١٤٢ من سورة البقرة)

واستخدام حرف السين هنا دليل على أن الأمر لم يحدث بعد .. ولو أنه حدث لقال الله سبحانه وتعالى : قال السفهاء .. ولكن قوله تعالى : سيقول ، دليل على أن ذلك سيحدث مستقبلا .. والآية نزلت فى غير المؤمنين وتليت عليهم قبل أن يقولوا .. ولو أنهم فكروا قليلا لسكتوا ولم يقولوا شيئاً .. وحينئذ كان الناس سيتساءلون عن قول الله :

ويقولون لم يأت هؤلاء الذين وصفهم الله بالسفهاء الذين ويقولون : ماولاهم عن قبلتهم .. ولكنهم رغم أنهم يريدون هدم الدين .. ورغم أن الدليل المادى لهدم قضية الإيمان وضع فى أيديهم إلا إنه لم يخطر على بالهم أن يمتنعوا عن القول .. بل جاءوا وقالوا ..لنعلم أن أمر الله وغيب الله لابد أن ينفذا مهما كانت هناك إرادة بشرية .

الحق سبحانه وتعالى أعطانا الدليل المادى على صدق قوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ﴾

(من الآية ٢٣٥ من سورة البقرة)

وهذا هو الدليل

فالذين لا يؤمنون لا يصدقون هذا الكلام .. ويقولون أين الدليل العقلي على ذلك ؟ .. نقول إن الدليل العقلي موجود .. فالله سبحانه وتعالى أنزل في القرآن الكريم الدليل على أنه يعلم ما في النفس وما يدور فيها .. اقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ۝١ ﴾

(الاية الأولى من سورة المنافقون)

هذه الاية الكريمة قد نزلت عندما جاء عدد من المنافقين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليعلنوا إسلامهم .. ماذا قال المنافقون ؟ .. قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم :

وهذه شهادة حق .. لأن الله سبحانه وتعالى يقول والله يعلم إنك لرسوله إذن شهادة المنافقين وافقت علم الله سبحانه وتعالى .. ولكن الله سبحانه يقول :

كيف يكون المنافقون كاذبين وهم قد شهدوا بما قاله الله سبحانه وتعالى ؟ .. نقول إن الله أراد أن يعلم رسوله صلى الله عليه وسلم .. أن ما تقوله ألسنة هؤلاء المنافقين لا يوافق ما في قلوبهم .. فهم شهدوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالرسالة .. ولكن بألسنتهم فقط .. أما قلوبهم فهي منكرة لهذه الرسالة مكذبة بها .. وهكذا أعلن ما في صدور المنافقين وما يخفونه عن الناس .. ولم يجرؤا أن يكذبوا ما أعلنه الله .. والقرآن

الكريم فيه آيات كثيرة تعطينا الدليل المادى على أن الله يعلم ما يخفيه الإنسان في صدره ولو لم ينطق به. وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ﴿٧﴾ ﴾

(من الآية ٧ من سورة طه)

والسر هو ما يسر به الإنسان إلى غيره .. والسر دائماً يكون بين اثنين .. وما هو أخفى من السر .. أى ما لا ينطق به الإنسان لأحد بل يبقى فى صدره لا يعلمه أحد غيره والله سبحانه وتعالى يأتى ليفضح الكافرين والمنافقين فيقول :

﴿ وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ ﴾

(من الآية ٨ من سورة المجادلة)

إذن هم لم يقولوا هذا الكلام لأحد .. ولكن قالوه فى أنفسهم فقط ولم تنطق به ألسنتهم .. ولا تحركت به شفاههم .

ولكن الله فضحهم وأنبأ بما فى صدورهم ولم يستطيعوا أن يكذبوه .. ولو أن هذا كان صحيحا لقالوا لم نقل شيئاً فى أنفسنا .. ولكنهم بهتوا بعلم الله سبحانه وتعالى فلم يستطيعوا الرد عليه ولو بالكذب .

الله حدد من المنتصر

وهكذا يظهر بالدليل المادى أن الله سبحانه وتعالى يعلم ما فى الصدور وما تخفى الأنفس ولا تعلنه ، وأن الله عليم بما يحرص الإنسان على إخفائه عن الدنيا كلها .. فعلم الله يمتد إلى غيب النفس البشرية .. وما تحاول أن تكتمه أو تعتقد أن أحداً لا يعلمه .

ثم يأتي الحق سبحانه وتعالى بدليل مادى آخر .. على أنه هو عالم الغيب .. وأن ما يقوله حادث ونافذ .. وأن الدنيا كلها لا تستطيع أن تغير قدراً من أقدار الله .. ويعطينا الدليل المادى على ذلك فيقول تبارك وتعالى :

﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ ﴾

(الآيات من ١ - ٤ من سورة الروم)

وهذه حقيقة تاريخية لا يمكن أن ينكرها حتى الملحدون .. ولقد نزلت هذه الآية عندما قامت الحرب بين الفرس والروم .. وكانت الدولتان تمثلان أكبر قوة في العالم في ذلك الوقت .. مثل الاتحاد السوفيتي سابقا وأمريكا الآن .. وقامت الحرب بينهما وهزمت الروم في هذه الحرب .. وعندئذ فرح الكفار لأن الفرس كانوا دولة كافرة تعبد النار .. والروم كانت دولة مسيحية .. أى أهل كتاب .. وحزن المؤمنون لهزيمة الروم لأن الكفر انتصر على قوم هم أهل كتاب .. وأراد الله سبحانه وتعالى أن يطمئن المؤمنين .. ويذهب عنهم الحزن .. فنزلت الآيات الكريمة تبشر بأن الروم سينتصرون بعد بضع سنين .. وفي وقتها راهن المؤمنون الكفار على أن انتصار الروم سيحدث .. وكان من المراهنين سيدنا أبو بكر الصديق رضى الله عنه .. الذى راهن بأربعة من الإبل على أن انتصار الروم سيحدث بعد سبع سنين .. ولما مضت هذه المدة ولم يحدث شئ ، فرح المشركون بذلك ، وشق على المسلمين ، فذكر ذلك للرسول صلى الله عليه وسلم ، فقال :ما بضع سنين عندكم ، فقالوا: دون العشر ، فقال لأبى بكر:

إذهب فزايدهم وازيد سنتين في الأجل .. فما مضت السنتان حتى انتصر الروم على الفرس .. ففرح المسلمون بذلك .. ثم نهى الرسول أبا بكر ونهى الصحابة عن المراهنة .. وقال إن الإسلام لا يقرها ولا يسمح بها .

من الذى يستطيع أن يتنبأ بنتيجة معركة حربية ستحدث بعد تسع سنوات ؟ .. وماذا كان يمكن أن يحدث لو أن الروم والفرس عقدا صلحاً خلال هذه السنوات التسع .. أو أن الفرس استعدوا استعداداً قوياً لهذه الحرب وهزموا الروم مرة أخرى .. ومن الذى يستطيع أن يضمن نتيجة معركة حربية ستحدث بعد هذه الفترة الطويلة .. بل إن أحداً لا يستطيع أن يتنبأ بنتيجة معركة حربية ستحدث بعد لحظات .. بل إن كل قائد لأى معركة حربية لايكون واثقاً من النصر قبل أن تبدأ المعركة .. أو حتى عندما تبدأ .. فلو علم أى قائد لمعركة حربية أنه سيهزم لما دخلها .

يأتى الله سبحانه وتعالى ليعطينا الدليل المادى على أنه يعلم غيب السموات والأرض علم اليقين .. فينبئنا بنتيجة معركة لا بين قوتين محدودتين .. ولكن بين دولتين عظميين .. وينبئنا عن نتيجة هذه المعركة قبل أن تبدأ بتسع سنوات كاملة .. ويخبرنا من الذى سينتصر ومن الذى سيهزم .. وتأتى الأحداث وتقع الحرب .. وينتصر الروم ويهزم الفرس كما أخبرنا الله سبحانه وتعالى .. وماذا كان يمكن أن يحدث لو أن الفرس انتصروا على الروم .. والقرآن كلام الله المتعبد بتلاوته إلى يوم القيامة .. وكيف كان يمكن أن يقف المصلون فى المساجد ويقرأوا سورة الروم في الصلاة .. مع أن نتيجة الحرب قد اختلفت عما جاء فى هذه السورة .

وهكذا نرى مدى الإعجاز في أن الله سبحانه وتعالى .. قد بين لنا الدليل المادى على أنه يعلم الغيب .. وأن علمه للغيب علم يقين لابد أن يحدث وأن يتم .. وأنه مسيطر على أمور الدنيا كلها .. حتى في تلك الأشياء التي لا يمكن أن يتنبأ بنتيجتها أحد قبل حدوثها بتسع سنوات .. بل لا يمكن أن يتنبأ بنتيجتها أحد حتى ساعة حدوثها، أليس هذا دليلا مادياً على أن الله سبحانه وتعالى هو الذى يسير الأمر في كونه .. وهو الذى إذا قال كن يكون .. أليس هذا دليلا على أن الله سبحانه وتعالى إذا قال :

﴿ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾

(الآية ٨٢ من سورة يس)

قول من إله خالق ومسيطر وقادر على كل أحداث كونه .. فإذا عرفنا ذلك بالدليل المادى .. ألا نفهم معنى الآية الكريمة :

﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه ﴾

ونصدق يقينا بأن الله سبحانه وتعالى وحده هو رب وإله هذا الكون .

الوجود وإدراك الوجود

على أننا لابد أن ننتقل بعد ذلك إلى نقطة هامة جداً .. وهي أن عدم إدراكنا لوجود الشئ .. لا يعني أن هذا الشئ غير موجود .. فإذا حدثنا الله سبحانه وتعالى عن الملائكة وعن الجنة وعن النار وعن الشياطين .. فلابد أن نصدق .. ليس بالدليل الإيماني فقط .. لأن القائل هو الله .. ولكنه سبحانه وتعالى في تحد أعطى الدليل المادى لغير المؤمن به على أن الغيب

موجود وإن لم نكن ندرك وجوده .. وأعطاه لنا من أحداث هذا الكون وما يقع فيه من ماديات .

فإذا أخذنا مثلا الجراثيم تلك المخلوقات الدقيقة التى تهاجم جسد الإنسان وتصيبه بالمرض .. هذه الجراثيم عاشت مع الإنسان عمره كله .. ولكننا فى أول الحياة البشرية وحتى فترة قصيرة لم نكن نعرف عنها شيئاً .

ثم تقدم العلم وتوصل العلماء إلى الميكروسكوبات الالكترونية التى تكبر حجم الشئ ملايين المرات .. فماذا رأينا ؟ .. رأينا عجباً .. ميكروبات لها شكل و لهاحركة . ولها حياة ولها تناسل وتكاثر .. ولها طريقة لتخترق جسم الإنسان وتصل إلى الدم .. ولها تفاعلات مع كرات الدم ..

عالم كبير لم نكن نعرف عنه شيئاً بل كان غيبا عنا منذ مائة سنة .. ومع ذلك .. ومع كونه كان غيبا عنا فهل لم يكن موجوداً ؟ .. لا .. بل كان موجوداً يؤدى مهمته فى الحياة ..

وكان العلماء فى الماضى يعتقدون أن المرض معناه أن الأرواح الشريرة قد تلبست جسد الإنسان .. وكانوا يضربون المرضى أو يكوون أجزاء من أجسادهم حتى تخرج هذه الأرواح الشريرة ثم تقدم العلم واستطعنا أن نرى رؤية العين هذه الجراثيم ، وهى تتحرك وتتناسل .. وتخترق وتحارب .. بل استطعنا فى تجاربنا العلمية أن ندخل هذه الجراثيم إلى أجساد الحيوانات .. لندرس دورة حياتها وكيفية القضاء عليها .

وهكذا أعطانا الله الدليل المادى على أن ما هو غيب عنا موجود ويؤدى مهمته فى الحياة .. وأن عدم إدراكنا لوجوده لا يعنى عدم هذا الوجود.

وإذا نظرنا إلى قطرة الماء الذى نشربه تحت الميكرسكوب لوجدنا فيها أشياء عجيبة .. أشياء فيها حياة ولها حركة .. ولها كيان ولها دور فى الحياة .. ولكننا لم نكن نعرف منذ فترة قصيرة أن هذه الأشياء موجودة فهل كان هذا شهادة بعدم وجودها .. أم أنها كانت فى الحقيقة موجودة .. ولكننا لا ندرك هذا الموجود .

فإذا انتقلنا إلى الكون كله .. وجدناه يشهد أن الوجود شئ وإدراك الوجود شئ آخر تماماً .. وأن ما لا ندرك وجوده يؤدى مهمته فى الكون .. فلننظر مثلا إلى الأقمار الصناعية والإرسال التليفزيونى .. هل كان أحد يعرف أن ما يقع فى مكان ما فى العالم يستطيع العالم كله أن يشهده وفى نفس لحظة حدوثه ؟ .. طبعاً لم يكن أحد يعرف ذلك .

ثم كشف الله سبحانه وتعالى لنا من علمه ما مكننا من أن نعرف أنه موجود فى الكون من الخصائص ما يمكن أن يجعل الإنسان فى كل الدنيا ليرى ويشهد ما يقع فى مكان ما وقت حدوثه .. ويرى الإنسان وهو ينزل على القمر وهو يمشى فوقه ..

كيف توصل الإنسان إلى هذا التقدم العلمى ؟ .. هل اخترع غلافاً جوياً يستطيع أن ينقل الصور ؟ .. هل جاء بمواد من خارج الأرض .. أو بمواد من خارج خلق الله ليصنع منها الأقمار الصناعية التى حققت هذه الاتصالات ؟ .. طبعاً لا .. ولا يستطيع أن يقول ولا حتى أكبر الماديين أن

هذه الخصائص التي استخدمت قد أوجدها الإنسان وخلقها .. ولكن الغلاف الجوي والمواد في الأرض موجودة منذ خلق الله الأرض ومن عليها ولكن خصائصها كانت غيبا عنا .

وعندما جاءت مشيئة الله لتكشفها لنا وجدنا شيئاً عجبا فاستخدمناه فأعطانا ما نحن فيه من تقدم علمي .. أيستطيع أحد أن ينكر خصائص الكون وأنها كانت موجودة .. قبل أن يعلمنا الله كيف نستخدمها وفيم نستخدمها .. لا يستطيع أي مكابر أن يقول إنها لم تكن موجودة .. بل كانت موجودة ولكنها غيب عنا .. فلما أرادنا الله أن نعلمها كشفها لنا لنعلم أن ما هو غيب موجود .. رغم أننا لم نكن ندرك وجوده .

فإذا نظرنا إلى ما في السموات .. نجد أننا كلما استطعنا أن نصنع ميكرسكوباً أضخم وأقوى .. استطعنا أن نكشف أجراماً سماوية جديدة ونراها لأول مرة .. هل كانت هذه الأجرام التي لم نكن نعرف عنها شيئاً غير موجودة ؟ .. أو لم تكن تؤدي مهمتها في الكون ؟ .. كانت موجودة وكانت تؤدي مهمتها في الكون .. ولكن الله سبحانه وتعالى أخفى وجودها عنا إلى أجل حدده .. فلما جاء الأجل كشف لنا هذا الوجود فعرفناه حتى نعلم أن ما هو غيب عنا موجود يؤدي مهمته في الكون ولو لم ندرك وجوده

حياة البشر
ووجود الخالق

بل إن الله سبحانه وتعالى .. أراد أن تكون الحياة الإنسانية كلها شاهدة على أن الغيب موجود .. أرادنا أن نكون شهداء على أنفسنا حتى

لا نأتي يوم القيامة .. ونقول : يارب لم تعطنا الدليل العقلي على أن ما هو غيب عنا موجود .. فضلت عقولنا .. يارب لو أعطيتنا الدليل لكنا آمنا .. ولذلك جاءت حياة البشر كلها شاهدة على ذلك . فالله سبحانه وتعالى أعطى الإنسان وحده القدرة على أن يرث الحضارة ويضيف عليها .. في حين سلب ذلك من كل مخلوقاته .. ولذلك ترى أن حياة الحيوان مثلا كما هي منذ بدء الخليقة لم تتقدم .. فلم نسمع عن أن مجموعة من القرود مثلا قد عقدت اجتماعاً لترتقي بوسائل حياتها .. وتبني لنفسها أماكن مكيفة الهواء تقيها حرارة الجو في المناطق الاستوائية ..

إننا لم نسمع أن مجموعة من الحيوانات القطبية قد جلست معاً لتخترع وسائل تدفئة تقيها برد الشتاء القارس الذي يبيدها ويفنيها ويجعلها تتضور جوعاً .. ولم نسمع عن مجموعة من الحيوانات جلست تتداول للوصول إلى دواء لمرض يفتك بها .. أو للوصول إلى مبيد لحشرة تنقل لها الأمراض .. بل الرقي في حياة الحيوان أو النبات الذي يضعه هو العقل البشري ..

ولكن الإنسان مختلف عن ذلك تماماً .. فالعقل البشري قد أعطاه الله سبحانه وتعالى ميزة وراثة الحضارة البشرية .. فكل جيل يبدأ حياته من حيث انتهى الجيل الذي قبله .. ثم يضيف إليها .. وقدرة العقل البشري على استيعاب التقدم العلمي لا حدود لها .. ولذلك فإن كل جيل من البشر يعرف شيئاً كان غيبا عن الجيل الذي قبله .. وكل جيل من البشر يتيح الله سبحانه وتعالى له من أسرار ما وضعه في كونه ومن قوانين هذا الكون ما لم يتح للجيل الذي قبله ..

وإذا كان هذا الجيل هو جيل الكمبيوتر مثلا .. فإن الجيل القادم سيكشف الله له من أسرار هذا الكون ما يعطيه علماً يجعل أجهزة الكمبيوتر الحالية شيئاً من مخلفات الماضى .. وهكذا ترتقى الحضارات .

وكلما تقدم الزمن كانت سرعة ارتقاء الحضارات البشرية أكبر .. لأن إضافات مستمرة تحدث لهذه الحضارات .. وكل إضافة تفتح الطريق أمام إضافة أكبر .

لماذا أعطى الله سبحانه وتعالى البشرية وحدها .. هذه القدرة على الرقى الإنسانى .. لنعرف جميعاً ونحن الذين أعطينا الاختيار فى أن نؤمن أو لا نؤمن .. لنعرف جميعاً أن الجمود الفعلى فى أن ما هو غيب عنا غير موجود هو خرافة .. ونحس فى حياتنا كل يوم بأن هناك غيبا عنا يصبح واقعاً معلوماً .. ونرى المعجزة تحدث أمام أعيننا مرات ومرات .. ونشهدها برؤية اليقين .. علنا نتدبر ونفكر قليلا ، فنعلم أن الله سبحانه وتعالى بحكمته ورحمته .. قد أعطانا الدليل المادى على أن ما هو غيب عنا موجود .

فإذا أخبرنا بغيب لا ننكره .. ولكننا نؤمن بوجوده .. وبأن قدراتنا الحالية لا تصل إليه ولكنها قد تصل إليه فى المستقبل ..

وفى ذلك يلفتنا القرآن الكريم فى قوله تعالى :

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾

(الآية ٥٣ من سورة فصلت)

ونعرف معنى قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٢٤ ﴾

(الآية ٢٤ من سورة يونس)

وهكذا ونحن نراقب مسيرة الحضارة البشرية نعلم أن الله قد أخبرنا أن هذه الحضارة سترتقي وترتقي بما يكشفه الله لنا من قوانين هذا الكون حتى نظن أننا قادرون على أن نفعل ما نشاء في الأرض .. وهذا الظن ليس حقيقة ولكنه مجرد ظن .. لأن الله الذى كشف لنا هذه القوانين لم يخضعها لإرادتنا .. ولكنه سبحانه سخرها لنا فقط لنفعل بها ما نشاء ..

فإذا اغتر الإنسان واعتقد أن هذه القوانين من صنعه .. أو أنه أخضعها بذاتية علمه وبدون أمر الله تبارك وتعالى .. يأمر الله سبحانه وتعالى هذه القوانين أن تخرج عن أمر الإنسان فتدمره وتقوم الساعة .

الله أخبرنا بكنوز الأرض

وإذا كنا نريد أن نتحدث عن دليل غيبى آخر يزيد من الأدلة العقلية التى تثبت وجود الله .. فلابد أن نقرأ قوله تعالى :

﴿ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ ٦ ﴾

(الآية ٦ من سورة طه)

فلو قرأنا هذه الآية التي نزلت منذ أكثر من أربعة عشر قرناً .. لعلمنا أن أحداً لم يكن يدري شيئاً ولفترة طويلة عن معنى قوله تعالى :

﴿ وما تحت الثرى ﴾

وكان كل ما تحت الثرى أو تحت التراب أو في باطن الأرض غيبا عنا ثم أراد الله سبحانه وتعالى .. أن يكشف لنا أن ما هو غيب عنا موجود .. وإن لم نكن ندري بوجوده .. فكشف لنا ما تحت الثرى .. فوجدنا أن ما تحت الأرض يحتوي على كنوز رهيبة .. وجدنا البترول والذهب والمعادن والحديد وأشياء نفيسة .. ووجدنا المياه الجوفية .. ووجدنا عالماً هائلاً يحتوي على مواد لم نكن نعلم بوجودها ولا نعرف شيئاً عنها .

وهكذا أعطانا الحق سبحانه وتعالى دليلا آخر على أن ما هو غيب عنا موجود .. وإن كنا لا ندرك وجوده .. فلا أحد في هذه الدنيا يستطيع أن يدعي أنه هو الذي أوجد ما في باطن الأرض من كنوز .. ولا أحد مهما بلغ علمه ولا علماء الأرض مجتمعين يستطيعون أن يدعو أنهم هم الذين أوجدوا هذه البحيرات الهائلة من البترول .. أو هذه المعادن النفيسة كالذهب والفضة .. أو الماس أو النحاس أو الحديد أو الألومنيوم أو غيرها .

بل إن هناك كنوزاً تحت الثرى مختفية عن أعيننا تفوق الكنوز التي هي ظاهرة لأعيننا فوق سطح الأرض .. وهذه الكنوز لم تأت من عدم ولم توجد في السنوات الأخيرة .. بل كانت موجودة في باطن الأرض منذ أن خلقها الله سبحانه وتعالى .. ولكنها كانت غيبا عنا فلم نكن نعرف بوجودها .

حينئذ نكون قد وصلنا إلى أن الله سبحانه وتعالى .. قد أعطانا من الأدلة المادية والعقلية ما يؤكد لنا أن ما هو غيب عنا موجود وإن لم نكن ندرك وجوده .

فإذا حدثنا الله سبحانه وتعالى عما هو غيب عنا كالآخرة والحساب والجنة والنار .. لا نقول إن الله يخاطبنا بما لا نستطيع أن تدركه عقولنا .. وأننا لا نستطيع تصديق ذلك .. بل نعود إلى واقع الكون .. ونتأمل ما فيه من آيات .. وما وضعه الله لنا فيه من دلائل .. ولو أننا تدبرنا لقلنا يارب لقد أعطيتنا مع الدليل الإيمانى الدليل الفعلىّ الذى يقرب الصورة إلى أذهاننا حتى ندركها .. وليس لنا عذر يارب يوم الحساب .. فى أن نقول إن عقولنا لم تدرك ، لأنك وضعت فى كونك الأدلة المادية التى تثبت أن الغيب واقع وموجود .. وكان يجب أن تكون هذه الأدلة هى طريقنا إلى الإيمان .. لا طريقنا إلى الكفر والإلحاد .

على أننا سننتقل بعد ذلك إلى الآيات الأرضية .. التى أراد الله سبحانه وتعالى أن يلفتنا بها .. إلى أنه لا إله إلا هو الخالق والموجد والقادر .



وفى الأرض آيات

الله سبحانه وتعالى له آيات تملأ
الأرض والسماء ولكننا غافلون
عنها .. ومن الإعجاز الإلهى أن
آيات الله لا تنتهى .. فإذا
مشيت فى الطريق فهناك آيات
وإذا صعدت إلى الجبل فهناك
آيات .. وإذا نزلت إلى قاع
البحر وجدت آيات .. وإذا
صعدت إلى السماء كانت هناك
أكثر من آية .

وإذا نزلت إلى باطن الأرض فهناك آيات وآيات .. هناك آية في تلك الشجيرة الصغيرة التي تراها تنبت في سطح الجبل .. ساقها هشة لينة ربما لا تحتمل قبضة يدك ومع هذا فقد فتت الصخر ونبتت فيه .. واستطاعت الشجيرة الرقيقة الرفيعة أن تمتد وتضرب في باطن الجبل وتحصل على الغذاء .

وتتعجب أنت كيف يمكن أن يحدث ذلك .. مع أنك لو أردت أن تضع ثقبا في سطح الجبل لاحتجت إلى آلات حادة وقوى كثيرة .. وتعرف أن الله سبحانه وتعالى الذي خلقها قد ألان لها الصخر فنبتت فيه .. وألان لجذورها صخور الجبل فامتدت حتى وصلت إلى المصدر الذي يعطيها الغذاء .

هذه الآيات لا تحتاج إلى بحث ولا إلى ميكروسكوب .. ولكنها تحتاج لمجرد التأمل .. وفي الأرض آيات كثيرة لا تحتاج منا أكثر من أن نتأملها لنعرف قدرة الله وعظمته ونؤمن به .. ولذلك قال الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز :

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾

(الآية ٢٨ من سورة فاطر)

لماذا خص الله العلماء بالخشية ؟ لأنهم وهم يبحثون في مخلوقات الله في الأرض .. يرون أسرارا ودقة خلق وإبداع تكوين كان يجب أن يجعلهم أول الساجدين لله .. أول العابدين لله . ولكن هؤلاء العلماء الماديين بدلا من أن يفعلوا ذلك .. أخذوا يحاولون النيل من الدين ومن الإيمان .. والإنسان يعتقد أنه وصل إلى أسرار الكون .. ولكنه في الحقيقة

لم يصل حتى إلى أسرار نفسه .. بل إنه ينتقل من قانون إلى قانون ولا يعرف كيف ينتقل .. ولا ما هو سر هذا الانتقال.

فالإنسان وهو مستيقظ له قوانين ربما عرفنا بعضها .. ولكنه إذا نام انتقل إلى قانون مختلف تماما مجهول له .. فهو يخرج من الزمن .. فالإنسان وهو نائم لا يحس بالزمن .. فإذا استيقظ فهو لا يعرف كم ساعة نامها ولابد أن ينظر إلى ساعته ليعرف كم ساعة قضاها وهو غائب عما حوله .

إذن قانون الزمن لا يسري على النائم فلا يحس بالوقت .. لماذا ؟.. لأن الزمن هو قياس للأحداث .. فنحن نقيس الأحداث بالزمن .. والنائم هو خارج عن هذه الأحداث .

والإنسان إذا نام رأى وعيناه مغمضتان .. ومشى وجرى وقدماه لا تتحركان من فوق السرير .. وتحدث ولسانه لم يتحرك .. ورأى وتكلم مع أناس انتقلوا إلى العالم الآخر منذ سنوات .. ومع ذلك فهو يحدثهم ويسمعهم وهم يكلمونه ويفهم ما يقولون .. والعلم خارج هذه المنطقة تماما فلا يستطيع عالم أن يخبرنا كيف يرى الإنسان وهو نائم .. أو يتحرك أو يلتقي مع أناس انتقلوا للعالم الآخر.. وكل ما جاء عن هذا في محاولات أطلق عليها اسم العلم .. إنما هي تخمينات بلا دليل ومعظمها من الخيال أكثر من الواقع .. ومع أن كل هذا يحدث لكل منا ويحدث كل يوم .. تجد هناك من يعلن بوقاحة .. ويقول انتهى عصر الدين وجاء عصر العلم .. وهؤلاء إنما يقولون بهتانا .. فالله هو الكاشف لعباده عن العلم.. هو القائل في كتابه الكريم :

﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝ ﴾

(الآيات ٣ و٤ و٥ سورة العلق)

لماذا لا يؤمنون ؟

ولكن الناس لا يؤمنون .. رغم أن هناك من الأدلة المادية في الكون ما لا يعد ولا يحصى .. تهدى الناس إلى طريق الإيمان وإلى وجود الله .. وهؤلاء الذين لا يؤمنون بعضهم منكر للدين لأنه يريد أن يكون هو مصدر التشريع ، لأن منهج الله سبحانه وتعالى قائم على العدل بين الناس .. وأعطى كل ذي حق حقه .. وهم يريدون أن يتميزوا وأن يأخذوا حقوق غيرهم .. ولا سبيل إلى ذلك إلا أن يضعوا منهجا من صنعهم .. يعطيهم كل شيء ويسلب غيرهم كل شيء .. والطريقة الوحيدة لذلك هي أن ينكروا منهج السماء.

والقسم الثاني فضل أن يعيش مع النعمة بدلا من أن يعيش مع المنعم.. وهؤلاء الناس الذين متعهم الله سبحانه وتعالى بنعمه في الدنيا لم يفكروا كيف جاءت هذه النعم ولكنهم أرادوا أن يأخذوا من النعم كل ما يستطيعون .. وأعماهم الطمع الإنساني .. فلم يفكروا إلا في الحصول على نعمة المال أو نعمة السلطة أو غيرها من نعم الكون .. وهؤلاء شغلوا أنفسهم بالمادة بدلا من أن يفكروا فيمن خلق المادة .. وأخذوا النعم في أنها حق لهم دون أن يبحثوا عمن أوجدها. فرغم أن قوانينهم المادية التي يؤمنون بها .. تقول : إنه لا شيء يحدث في الدنيا بدون فاعل .. فلم نجد مثلا عمارة نشأت هكذا دون أن يكون لها مهندس وعمال وغير ذلك ممن أقاموها .. ولم يجلسوا في بيوتهم مثلا ليجدوا كمية من المال ظهرت

أمامهم فجأة .. وكل مصالحهم لابد أن يتحركوا لقضائها.

ومع أن قانون المادة يقول إنه لا يوجد فعل بدون فاعل .. فإنهم لم يطبقوا هذا القانون على الكون كله .. بل ادعوا أن الكون قد خلق بدون فاعل .. بعضهم قال : حدث هذا بتفاعل المواد !! .. ولو انصفوا لسألوا أنفسهم من الذى أوجد المادة أولا ومن الذى حركها ثانيا .. ولكنهم تناسوا هذا السؤال !

وحتى إذا صدمتهم آية من آيات الله تكبروا عليها .. ولعل هذا واضح فى العالم الغربى الذى يحاول الفصل بين العلم والدين فصلا تامًا .. وربما كان السبب فى ذلك هو المعركة الرهيبة التى قامت بين العلم والكنسية واستمرت أكثر من قرنين .. وقد كانت الكنيسة تنكر العلم تماماً استناداً إلى التوراة وهى الكتاب المقدس لليهود، والذى تؤمن به الكنيسة. وما جاء فى التوراة يقول إن شجرة التفاح التى أكل منها آدم هى شجرة المعرفة .. وإنه حينما أكل آدم التفاحة .. كشفت له علوم كثيرة فغضب الله عليه وطرده من الجنة .. وكانت هذه هى المعصية الأولى التى مازالت البشرية تعانى منها حتى الآن .. والتى نكفر عنها بحياتنا فى الأرض المليئة بالشقاء .. ولو لم يأكل آدم تفاحة المعرفة لكنا حتى الآن نعيش فى الجنة .

هذه الخرافة المحرفة هى التى أدت إلى المعركة بين الكنيسة والعلم .. تلك المعركة التى تعرض فيها العالم الإيطالى جاليليو جاليلى فى القرن الخامس عشر إلى غضب الكنيسة عندما أثبت بالأدلة المادية كروية الأرض وأصدرت الكنيسة حكماً يحرقه حياً لأنه كفر .. واضطر العالم الايطالى

أن ينكر ما اكتشفه.

ولكن موقف الإسلام مختلف .. ذلك أن التفاحة التى أكلها آدم هى منهج الشيطان الذى أظهر عوراته وكشفها .. كما يظهر تزيين الشيطان للناس فى الدنيا عوراتهم فيكشفها فيصيبهم الخزى والعار..

العلم كاشف لقوانين الكون

أما العلم فالإسلام ينظر إليه على أنه من الله أولا .. فالله يكشف آياته فى الأرض للإنسان .. والإنسان يكتشف ولا يخلق أو يضع فى الكون قوانين جديدة من صنعه .. ولكن الله يكشف لمن يشاء قوانين كونه ولكل قانون وكشف ميلاد .. فإذا جاء ميلاد كشف لقانون كونى .. كشفه الله لمن يبحث عنه من البشر فيعرفونه ويستخدمونه.

والله سبحانه وتعالى الذى قال :﴿ علم الإنسان مالم يعلم ﴾.

يجب أن نعرف أن كل علم هو من الله .. والله سبحانه وتعالى ميز الإنسان على الملائكة بالعلم .. فقال جل جلاله :

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(الآيات من ٣١ – ٣٣ من سورة البقرة)

هذا هو موقف الإسلام من العلم .. وإن كان للكنيسة موقف آخر في معركة استمرت قرنين كاملين بين الكنيسة والعلماء .. وعندما انتصر العلماء عملوا على تضييق نفوذ الكنيسة بحيث أصبحت لا دخل لها بالعلم .. وفصلوا الدين عن الدولة إلى آخر ما يرويه التاريخ.

والعلماء في أبحاثهم يحاولون إنكار دور الدين إيماناً بذاتيتهم ، فهم يريدون أن يقولوا نحن فعلنا ونحن اكتشفنا .. كما قال قارون :

﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ﴾

(الآية ٧٨ من سورة القصص)

ولذلك فليس في بالهم الله وسيفاجئون بالله سبحانه وتعالى في الآخرة .. مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾

(الآية ٣٩ من سورة النور)

ولا يحسب أحد أن هؤلاء الذين كفروا فعلوا ذلك لأن آيات الله لم تصل إليهم .. بل الآيات أمامهم ولكنهم هم الذين يتكبرون على الإيمان .. ويقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ ﴾

(الآية ٤ من سورة الأنعام)

ولذلك فإن إعراضهم ليس على أن الدليل المادى على وجود الله غائب عنهم ولكن لأنهم يرفضون الإيمان .. أما ليحققوا مصالح ذاتية .. وإما لأنهم لا يؤمنون بالآخرة .. فيحاولون أن يأخذوا كل ما تعطيهم الدنيا على أن هذا هو كل شئ .. وتكون النتيجة أنهم يستخدومن كل الوسائل حلالا أو حراماً فى الوصول إلى أهدافهم .. عملا بمبدأ أن الغاية تبرر الوسيلة.

الإبصــار .. كيف يتم ؟

ولو أنهم فكروا قليلا لوجدوا الآيات فى القرآن الكريم معجزات .. ولو أنهم كانوا علماء وباحثين فعلا .. لقرأوا القرآن الذى سمعوا عنه .. ودرسوا الإسلام دراسة غير مغرضة .. ثم بعد ذلك من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر .. وإنهم مثلا لو التفتوا إلى الآية الكريمة :

﴿ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾

(الآية ١٢ من سورة الإسراء)

لعرفوا الإعجاز فى هذه الآية وحدها .. ولكان الإعجاز فيها كافياً لأن يؤمنوا .. الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وجعلنا آية النهار مبصرة ﴾

وهكذا وصف الله النهار بأنه هو المبصر .. ولكن هل النهار هو الذى يبصر .. أم العين هى التى تبصر ؟ .. الذى نفهمه من تلقائية الأبصار أن العين هى التى تبصر .. ولكن الحقيقة العلمية تختلف .. فلقد ثبت علميًا أن ضوء الشمس ينعكس على الأشياء ثم تدخل أشعة النور إلى العين فتبصر.

إذن فالعين لا تبصر بذاتها ولا بذاتيتها .. ولكنها تبصر بالضوء الذى ينعكس على الأشياء الموجودة أمامها ويدخل إلى العين .. فإذا ذهب هذا الضوء وجاء الظلام فإن العين لا تبصر ولا ترى شيئاً فى الظلام الدامس إلا أن تأتى بمصباح أو مصدر من نور يلقى الضوء على الأشياء فينعكس على العين فتبصر.

وهكذا نرى دقة تعبير القرآن الكريم فى قوله تعالى :

﴿ وجعلنا آية النهار مبصرة ﴾

فالإبصار نسبه الله سبحانه وتعالى لضوء النهار ولم ينسبه إلى العين ولقد نزلت هذه الآية والبشر كلهم لا يعلمون كيف يتم الإبصار ؟ .. ماذا كان يحدث لو تقدم العلم وكشف أن العين تبصر بذاتها وليس بانعكاس الضوء على الأشياء .. أكنا فى هذه الحالة نستطيع أن نقرأ فى الصلاة.

﴿ وجعلنا آية النهار مبصرة ﴾

ألم يكن هذا كافياً لهدم قضية الدين من أساسه.

ولو أن هذا القرآن ليس من عند الله .. وأنه من عند محمد عليه الصلاة والسلام .. فما الذى كان يجعله يغامر بذكر قضية علمية كهذه القضية قد يثبت عدم صحتها فيضيع الدين كله .. ومن أين له هذه المعلومات حتى يعرف أن الإبصار يحدث بضوء النهار؟ .. أليس هذا دليلا مادياً كافياً للإيمان بالله .. وللإيمان بأن القرآن منزل من عند الله الخالق لهذا الكون والعالم بأسراره.

الأرض كروية ..

إن القرآن كلام الله المتعبد بتلاوته إلى يوم القيامة .ومعنى ذلك أنه لا يجب أن يحدث تصادم بينه وبين الحقائق العلمية في الكون .. لأن القرآن الكريم لا يتغير ولا يتبدل .. ولو حدث مثل هذا التصادم لضاعت قضية الدين كلها .. ولكن التصادم يحدث من شيئين عدم فهم حقيقة قرآنية ، أو عدم صحة حقيقة علمية .. فإذا لم نفهم القرآن جيداً وفسرناه بغير مافيه حدث التصادم.. وإذا كانت الحقيقة العلمية كاذبة حدث التصادم .. ولكن كيف لا نفهم الحقيقة القرآنية ؟ .. سنضرب مثلا لذلك ليعلم الناس أن عدم فهم الحقيقة القرآنية قد يؤدي إلى تصادم مع حقائق الكون .. الله سبحانه وتعالى يقول في كتابه العزيز :

﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾

(من الآية ١٩ من سورة الحجر)

والمد معناه البسط .. ومعنى ذلك أن الأرض مبسوطة .. ولو فهمنا الآية على هذا المعنى لا تهمنا كل من تحدث عن كروية الأرض بالكفر خصوصاً أننا الآن بواسطة سفن الفضاء والأقمار الصناعية قد استطعنا أن نرى الأرض ، على هيئة كرة تدور حول نفسها .. نقول إن كل من فهم الآية الكريمة : ﴿ والأرض مددناها ﴾.

بمعنى أن الأرض مبسوطة لم يفهم الحقيقة القرآنية التي ذكرتها هذه الآية الكريمة .. ولكن المعنى يجمع الإعجاز اللغوي والإعجاز العلمي معاً ويعطي الحقيقة الظاهرة للعين والحقيقة العلمية المختفية عن العقول في وقت نزول القرآن .

عندما قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿والأرض مددناها﴾.

أي بسطناها .. أقال أي أرض ؟ .. لا .. لم يحدد أرضاً بعينها .. بل قال الأرض على إطلاقها .. ومعنى ذلك أنك إذا وصلت إلى أي مكان يسمى أرضا تراها أمامك ممدودة أي منبسطة .. فإذا كنت في خط الاستواء فالأرض أمامك منبسطة .. وإذاكنت في القطب الجنوبي أو في القطب الشمالي .. أو في أمريكا أو أوروبا أو في افريقيا أو آسيا .. أو في أي بقعة من الأرض .. فأنك تراها أمامك منبسطة .. ولا يمكن أن يحدث ذلك إلا إذا كانت الأرض كروية .. فلو كانت الأرض مربعة أو مثلثة أو مسدسة أو على شكل هندسي اخر .. فإنك تصل فيها إلى حافة .. لا ترى أمام الأرض منبسطة .. ولكنك ترى حافة الأرض ثم الفضاء ..

ولكن الشكل الهندسي الوحيد الذي يمكن أن تكون فيه الأرض ممدوده في كل بقعه تصل إليها هي أن تكون الأرض كروية .. حتى إذا بدأت من أي نقطة محددة على سطح الكرة الأرضية ثم ظللت تسير حتى عدت إلى نقطة البداية .. فإنك طوال مشوارك حول الأرض ستراها أمامك دائماً منبسطة .. ومادام الأمر كذلك فإنك لا تسير في أي بقعة على الأرض إلا وأنت تراها أمامك منبسطة.

وهكذا كانت الآية الكريمة :

﴿والأرض مددناها﴾.

لقد فهمها بعض الناس على أن الأرض مبسوطة دليل على كروية الأرض .. وهذا هو الإعجاز في القرآن الكريم .. يأتي باللفظ الواحد ليناسب ظاهر الأشياء ويدل على حقيقتها الكونية .

ولذلك فإن الذين أساءوا فهم هذه الآية الكريمة وأخذوها على أن معناها أن الأرض منبسطة .. قالوا هناك تصادم بين الدين والعلم .. والذين فهموا معنى الآية الكريمة فهماً صحيحاً قالوا إن القرآن الكريم هو أول كتاب في العالم ذكر أن الأرض كروية .. وكانت هذه الحقيقة وحدها كافية بأن يؤمنوا .. ولكنهم لا يؤمنون ..

الليل والنهار وجدا معاً

فالقرآن الكريم لم يأت بالدلائل التي تؤكد لنا أن الأرض كروية في آية واحدة .. بل جاء بها في آيات متعددة .. لماذا ؟ .. لأن هذه القضية كونية كبرى .. ولأن الكتب القديمة التي أنزلها الله قبل القرآن الكريم قد حرفت بشرياً .. فأوجدت تصادماً بين الدين والعلم .. ولذلك يأتي القرآن الكريم ليعطينا الدليل تلو الدليل على كروية الأرض .

يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

(الآية ٤٠ من سورة يس)

الله سبحانه وتعالى فى هذه الآية الكريمة يرد على اعتقاد غير صحيح كان موجوداً عند العرب وقت نزول القرآن .. وهو أن الليل يأتى أولا ثم بعد ذلك يأتى النهار .. أى أن النهار لا يسبق الليل .. ويجئ الحق ليصحح هذا الاعتقاد الخاطئ فيقول :

﴿ولا الليل سابق النهار﴾

أى أنكم تعتقدون أن النهار لا يسبق الليل .. ولكن الله يقول لكم :إن الليل أيضاً لا يسبق النهار .. ومعنى أن النهار لا يسبق الليل وأن الليل لا يسبق النهار .. أنهما موجودان معاً على سطح الكرة الأرضية .. وحيث إنه لم يحدث تغيير فى خلق الكون أو فى القوانين الكونية العليا بعد أن تم الخلق .. بل بقيت ثابتة تسير على نظام دقيق حتى قيام الساعة .. فلو كانت الأرض على شكل هندسى آخر مربع أو مثلث أو غير ذلك .. لكان فى ساعة الخلق وجد النهار أولا .. ولكن لا يمكن أن يوجد الليل والنهار معاً فى وقت واحد على سطح الكرة الأرضية .. إلا إذا كانت الأرض كروية .. فيكون نصف الكرة مضيئاً والنصف الآخر مظلماً .

ولكن الله سبحانه وتعالى أراد أن يؤكد هذا المعنى .. فذكر آية أخرى تحدد معنى كروية الأرض ودورانها فقال جل جلاله :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ ﴾

(الآية ٦٢ من سورة الفرقان)

ما معنى خلفة ؟ .. معناها أن الليل والنهار يخلف كل منهما الآخر .. فمثلا فى الحراسات المستمرة .. تأتى نوبة حراسة لتخلف نوبة سبقتها ثم تأتى النوبة الثالثة لتخلف الثانية وهكذا .

وإذا فرضنا أن مصنعاً يعمل أربعاً وعشرين ساعة متوالية .. فإنه يكون هناك أربع ورديات تخلف كل منهما الأخرى .. ولكننا لابد أن ننتبه إلى أنه في كل هذه النظم .. لابد أن تكون هناك وردية هي التي بدأت ولم تخلف أحداً .. فإذا قررنا وضع الحراسة على مكان فإن الوردية الأولى التي تبدأ الحراسة لا تخلف أحداً لأنها البداية .وإذا بدأنا العمل في المصنع فإن الوردية الأولى التي افتتحت العمل لم تخلف أحداً لأنه لم يكن هناك في المصنع عمل قبلها .

وهكذا في كل شئ في الدنيا .. يخلف بعضه بعضاً .. تكون البداية دائماً وليس هناك شئ قبلها تخلفه .. ولكن الحق سبحانه وتعالى قال :

﴿ هو الذي جعل الليل والنهار خلفة ﴾

ومادام الله هو الذي جعل فلابد أن يكون ذلك قد حدث ساعة الخلق .. فلوجد الليل والنهار خلفة على الأرض .. ولكننا كما أوضحنا .. فإن ساعة البداية في كل شئ لا يكون فيها خلفة .. أي لا يخلف شئ شيئاً قبله .. فهذه هي البدايات .. ولكن الله يقول لنا: إنه في ساعة البداية كان الليل والنهار خلفة .. إذن فلابد أن يكون الليل والنهار قد وجدا معاً ساعة الخلق على الأرض .. بحيث أصبح كل منهما خلفة للآخر .. فلم يأت النهار أولاً ثم خلفه الليل.. لأنه في هذه الحالة لا يكون النهار خلفة بل يكون بداية .. ولم يأت الليل أو لا ثم يخلفه النهار لأنه في هذه الحالة لن يكون الليل خلفة بل يكون بداية .. ولا يمكن أن يكون الليل والنهار كل منهما خلفة للآخر إلا إذا وجدا معاً.

ونحن نعلم أن الليل والنهار يتعاقبان علينا فى أى بقعة من بقاع الأرض.. فلا توجد بقعة هي نهار دائم بلا ليل .. ولا توجد بقعة هي ليل دائم بلا نهار .. بل كل بقاع الأرض فيها ليل وفيها نهار .. ولو أن الأرض ثابتة لا تدور حول نفسها .. ووجد الليل والنهار معاً ساعة الخلق فلن يكونا خلفة ولن يخلف أحدهما الآخر .. بل يظل الوضع ثابتاً كما حدث ساعة الخلق .. وبذلك لا يكون النهار خلفة لليل ولا الليل خلفة للنهار.

ولكن لكى يأتى الليل والنهار يخلف كل منهما الآخر .. فلا بد أن يكون هناك دوران للأرض لتحدث حركة تعاقب الليل والنهار.. فثبوت الأرض منذ بداية الخلق لا يجعل الليل والنهار يتعاقبان .. ولكن حركة دوران الأرض حول نفسها هي التي ينتج عنها هذا التعاقب أو هذه الخلفة التي أخبرنا الله سبحانه وتعالى بها .

إذن فقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وجعلنا الليل والنهار خلفة ﴾.

يحمل معنيين..المعنى الأول :أنهما خلقا معاً .. فلم يسبق أحدهما الآخر.. وهذا إخبار لنا من الله سبحانه وتعالى بأن الأرض كروية.

والمعنى الثانى : أن الأرض تدور حول نفسها.. وبذلك يتعاقب الليل والنهار .

معنى .. كروية الأرض

وهكذا نرى الإعجاز القرآنى .. فالقائل هو الله .. والخالق هو الله .. والمتكلم هو الله .. فجاء فى جزء من آية قرآنية ليخبرنا إن الأرض كروية وأنها تدور حول نفسها .. ولا ينسجم معنى هذه الآية الكريمة إلا بهاتين الحقيقتين معاً.. هل يوجد أكثر من ذلك دليل مادى على أن الله هو خالق هذا الكون ؟

ثم يأتى الحق سبحانه وتعالى ليؤكد المعنى فى هذه الحقيقة الكونية لأنه سبحانه وتعالى يريد أن يُرى خلقه آياته فيقول :

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾ ﴾

(الآية ٥ من سورة الزمر)

وهكذا يصف الحق سبحانه وتعالى بأن الليل والنهار خلقا على هيئة التكوير .. وبما أن الليل والنهار وجدا على سطح الأرض معاً فلا يمكن أن يكونا على هيئة التكوير .. إلا إذا كانت الأرض نفسها كروية ..بحيث يكون نصف الكرة مظلماً والنصف الآخر مضيئاً وهذه حقيقة قرآنية أخرى تذكر لنا أن نصف الأرض يكون مضيئاً والنصف الآخر مظلماً.

فلو أن الليل والنهار وجدا على سطح الأرض غير متساويين فى المساحة.. بحيث كان أحدهما يبدو شريطاً رفيعاً .. فى حين يغطى الآخر معظم المساحة ، ما كان الاثنان معاً على هيئة كرة .. لأن الشريط الرفيع فى هذه الحالة سيكون فى شكل مستطيل أو مثلث أو مربع.. أو أى شكل هندسى آخر حسب المساحة التى يحتلها فوق سطح الأرض .. وكان من الممكن أن يكون الوضع كذلك باختلاف مساحة الليل والنهار .. ولكن قوله تعالى : **﴿ يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل ﴾.**

دليل على أن نصف الكرة الأرضية يكون ليلا والنصف الآخر نهاراً .. وعندما تقدم العلم وصعد الإنسان إلى الفضاء ورأى الأرض وصورها ..

وجدنا فعلاً أن نصفها مضئ ونصفها مظلم كما أخبرنا الله سبحانه وتعالى.

فإذا أردنا دليلا آخر على دوران الأرض حول نفسها لابد أن نلتفت إلى الآية الكريمة فى قوله تعالى :

﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾

(الآية ٨٨ من سورة النمل)

عندما نقرأ هذه الآية ونحن نرى أمامنا الجبال ثابتة جامدة لا تتحرك نتعجب .. لأن الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ تحسبها جامدة ﴾.

ومعنى ذلك أن رؤيتنا للجبال ليست رؤية يقينيه .. ولكن هناك شيئاً خلقه الله سبحانه وتعالى وخفى عن أبصارنا .. فمادمنا نحسب فليست هذه هى الحقيقة .. أى أن مانراه من ثبات الجبال وعدم حركتها .. ليس حقيقة كونية.. وإنما إتقان من الله سبحانه وتعالى وطلاقة قدرة منه بأنه خلق شيئاً جعلنا نراه على غير حقيقته وتلك طلاقة قدرة الخالق .. لأن الجبل ضخم كبير بحيث لا يخفى عن أى عين .. فلو كان حجم الجبل دقيقاً لقلنا لم تدركه أبصارنا كما يجب .. أو أننا لدقة حجمه لم نلتفت إليه هل هو متحرك أم ثابت .. ولكن الله خلق الجبل ضخماً يراه أقل الناس إبصاراً حتى لا يتحجج أحد بأن بصره ضعيف لا يدرك الأشياء الدقيقة. وفى نفس الوقت قال لنا أن هذه الجبال الثابتة تمر أمامكم مر السحاب.

ولماذا استخدم الحق سبحانه وتعالى حركة السحب وهو يصف لنا تحرك الجبال ؟.. لأن السحب ليست لها ذاتية الحركة .. فهى لا تتحرك من

مكان إلى آخر بقدرتها الذاتية .. بل لابد أن تتحرك بقوة تحرك الرياح .. ولو سكنت الريح لبقيت السحب في مكانها بلا حركة .. وكذلك الجبال .

الله سبحانه وتعالى يريدنا أن نعرف أن الجبال ليست لها حركة ذاتية، أي أنها لا تنتقل بذاتيتها من مكان إلى آخر .. فلا يكون هناك جبل في أوروبا ، ثم نجده بعد ذلك في أمريكا أو آسيا .. ولكن تحركها يتم بقوة خارجة عنها هي التي تحركها .. وبما أن الجبال موجودة فوق الأرض .. فلا توجد قوة تحرك الجبال إلا إذا كانت الأرض نفسها تتحرك ومعها الجبال التي فوق سطحها .

وهكذا تبدو الجبال أمامنا ثابتة لأنها لا تغير مكانها .. ولكنها في نفس الوقت تتحرك لأن الأرض تدور حول نفسها والجبال جزء من الأرض ، فهي تدور معها تماماً كما تحرك الريح السحاب .. ونحن لا نحس بدوران الأرض حول نفسها .. ولذلك لا نحس أيضاً بحركة الجبال .

وقوله تعالى : ﴿ وهي تمر مر السحاب ﴾

معناها أن هناك فترة زمنية بين كل فترة تمر فيها .. ذلك لأن السحاب لا يبقى دائماً بل تأتي فترات ممطرة وفترات جافة وفترات تسطع فيها الشمس .. وكذلك حركة الجبال تدور وتعود إلى نفس المكان كل فترة .

وإذا أردنا أن نمضي فالأرض مليئة بالآيات .. ولكننا نحن الذين لا نتنبه .. وإذا نبهنا أحد فإن الكفار يعرضون عن آيات الله .. تماماً كما حدث مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .. حين قال له الكفار في قوله تعالى :

﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ۝٩٠ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ۝٩١ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ۝٩٢ ﴾

(من الآيتين ٩٠ و ٩١ من سورة الإسراء)

وكان كل هذا معاندة منهم .. لأن الآيات التى نزلت فى القرآن الكريم فيها من المعجزات الكثير الذى يجعلهم يؤمنون .

السير فى الأرض

والحقائق الكونية فى القرآن الكريم تتوالى .. والآيات تلو الآيات .. ترينا إعجاز الخلق ودقة إخبار الخالق لنا عن أسرار السموات والأرض .. الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ۝١١ ﴾

(الآية ١١ من سورة الأنعام)

عندما نزلت هذه الآية الكريمة أخذنا معناها على أننا نسير فى أنحاء الأرض .. ولم نتنبه إلى الحقيقة وهى أننا نسير على الأرض .. أى فوق سطحها وليس فى بطنها فكيف يقول لنا الحق : ﴿ سيروا فى الأرض ﴾

ولماذا لم يقل سيروا على الأرض .. ثم تأتى الحقيقة العلمية وهى أننا فعلا نسير فى الأرض .. وليس على الأرض .. لأن هناك غلافاً جوياً يحيط بالأرض وهو جزء منها .. ونحن لا نخرج من الأرض إلا إذا خرجنا من هذا الغلاف الجوى .

فالطائرات التي تطير على ارتفاعات مختلفة تطير في الأرض وليس خارج الأرض .. ولكن الذي يخرج من الأرض هي سفن الفضاء التي تتجاوز الغلاف الجوي للأرض .. وبدون تجاوز هذا الغلاف لا تستطيع أن ترى صورة الأرض كاملة .. لأنك مادمت قد أصبحت خارج الشئ تتضح أمامك الصورة .. فأنت خارج عمارة مثلا تستطيع أن تعرف شكل العمارة ولكنك من داخلها ومن أي مكان فيها ..لا تستطيع أن ترى الصورة كاملة.

وعلى أية حال .. فإنه علمياً أنت لا تكون خارج الأرض إلا إذا خرجت من الغلاف الجوي المحيط بها .. لأن الأرض والغلاف الجوي شئ واحد .

وقوله تعالى : ﴿ سيروا في الأرض ﴾

يجعلنا نتساءل أين نسير ؟ .. نحن نسير حقيقة على سطح الأرض ولكننا نسير في الأرض .. أي بين سطح الأرض والغلاف الجوي .. فما تحتنا هو أرض وما فوقنا هو جزء مكمل للأرض ، وهو الغلاف الجوي .. وهكذا نرى دقة تعبير القرآن الكريم في وصفه لحركة الإنسان في الأرض .

وإذا كان هذا الوصف يعطينا معجزة .. فإن الأرض نفسها تعطينا معجزة أخرى .

نحن نرى ونمشي في مزارع الأرض وحدائقها .. ونرى أمامنا الأشجار المختلفة والنباتات المختلفة .. ولكن هل يفكر أحد منا في معجزة الخلق في هذه النباتات التي نراها كل يوم .. نحن نعرف أن النباتات تحصل على غذائها بواسطة جذورها الشعرية الدقيقة .. التي تضرب في الأرض .. فتأخذ منها عناصر الغذاء التي تعطيها النمو والثمر . هذه الأشجار كيف تتغذى ؟!..

يقول العلماء :إن الغذاء يصعد من جذور النباتات إلى الساق والأوراق والثمار ليغذيها .. بواسطة ما يسمى بالضغط الاسموزى ، أو نظرية الأنابيب الشعرية .. ويدالون على صحة نظريتهم بأنهم يأتون بإناء واسع ويضعون فيه أنابيب شعرية .. فنرى الماء يصعد فيها .. وهكذا أراد العلم أن يفهمنا أن العملية فيها ميكانيكية الغذاء .. دون أن يكون فيها آيات الخلق وإعجاز الخالق .

نقول : إن هذا التفسير العلمي قد أوضح شيئاً وغابت عنه أشياء .. فالماء يصعد فعلا فى هذه الأنابيب الشعرية .. ولكنه يصعد بكل محتوياته فالأنابيب الشعرية لا تميز بين عناصر الماء .. فتأخذ عنصراً وتترك عنصراً .. ولكن في النبات .. الأمر يختلف تماماً .

الشجر .. ومعجزة الخلق

فالغذاء فى الأرض بعناصره كله واحد متجانس .. ولكننا نرى كل شجرة تأخذ من هذا الغذاء ما يناسب ثمارها .. أى أنها تختار العناصر اللازمة لها .. وتترك الباقى ولا تأخذه .. ولذلك نرى الزرع ينبت فى مكان واحد ويسقى بماء واحد .. ولكن كل ثمرة لها طعم وشكل ولون ورائحة وحجم يختلف عن الأخرى .. فهذه حلوة .. وهذه مره .. وهذه صغيرة وهذه كبيرة .. وهذه لونها أحمر وتلك لونها أصفر .. والثالثة لونها أبيض وهذه لها رائحة نفاذة وتلك ليس لها رائحة .. أشكال وألوان مختلفة .. وكل شجرة من هذه الأشجار تأخذ من الأرض ما يناسبها من عناصر التكوين الدقيق لها بكل تفاصيله وتترك الباقى .. ونرى شجرة التفاح ثمرها حلو ورائحتها نفاذة .. وبجانبها الليمون طعمه حامض وبجانبها

الحنظل طعمه مر .. وثمرة نأكلها ونترك ما بداخلها مثل المشمش والخوخ والبلح .. وثمرة ننزع غلافها ولا نأكله ولكننا نرميه كالبرتقال و البطيخ .. وثمرة لها غلاف هش كالبرقوق مثلا .. وثمرة غلافها جامد قوى لا تستطيع أن تنزعه بيدك كالجوز واللوز والبندق وجوز الهند .. وثمرة صالحة للتخزين أياماً أو أسابيع كأنواع من البطيخ .. وثمرة صالحة للتخزين شهوراً طويلة كالجوز واللوز .

وأستطيع أن أمضى بلا نهاية فى وصف أنواع الثمر المختلفة التى تنبتها الأشجار .. ولكننى أفضل أن أذكر الآية الكريمة التى يقول فيها الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾

(الآية ٤ من سورة الرعد)

ونحن نمر على الجنات الموجودة فى كل أنحاء الأرض ونرى هذه الآيات .. ثم بعد ذلك نتساءل : أين الدليل المادى على أن الله هو الخالق سبحانك ياربى القائل :

﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ ﴾

(الآية ٤ من سورة الأنعام)

وصدق الله العظيم فى قوله تعالى : ﴿ قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴿١٧﴾ ﴾

(الآية ١٧ من سورة عبس)

الفصل الخامس:

الأدلة المادية



الكون مليء بآيات العلم التى
تدل على وجـود الله - وليس
معنى ذلك أننا نسـتدل على
صحة القرآن بالعلم - بل إن
القرآن هو المهيمن والمسيطر
وهو الحق .. ومـا العلم إلا
كاشف لقدرة الله فى الكون ..
فما جاء به القرآن نحن نؤمن
به إيمانا غيبيا لا يرقى إليه
أى شك ولا نريد عليه دليلا ..

لأن دليلنا ويقيننا أن الله هو الذى قال .. ولكننا نكتب هذا الكتاب لنرد على غير المؤمنين .

ولذلك فنحن نأتى بالحجة والدليل المادى مالا يستطيعون أن يردوا عليه ونحن لا نقدر أن نحيط بكل آيات الله فى الكون .. ذلك أن آيات الله أكبر من أن يحيط بها بشر مهما كانت قدرته وعلمه .

وفى جولة تشمل الكون المحيط بنا وحسب قدراتنا البشرية .. سنثبت أن لله آيات ومعجزات ذكرت فى القرآن الكريم .. واعترف غير المؤمنين أنه لا يمكن أن يكون منزل هذه الآيات إلا الله سبحانه وتعالى .. ولذلك فإننا سنجوب الكون لنعطى مثلا واحدا من عدة أماكن .. ففى خلق الإنسان آيات .. وفى الجبال آيات .. وإذا صعدنا إلى السماء وجدنا آيات .. وإذا نزلنا إلى باطن الأرض كانت هناك آيات .. وإذا غصنا فى أعماق البحار كانت هناك آيات .. كل هذا موجود .. نحن سنعطى لمحات .. لأننا إذا أردنا أن نحيط بكل شىء فنحن نحتاج إلى مجلدات كثيرة .

وكما قلت فإن أى تصادم بين القرآن و العلم لا يمكن إلا أن تكون النظرية العلمية خاطئة .. أو يكون فهمنا للقرآن غير سليم .. وقد تحدثنا عن ذلك فى الفصل السابق .

الله سبحانه وتعالى قال فى كتابه الكريم :

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾

(الآية ٥٣ من سورة فصلت)

ومعنى سنريهم .. أى سيرون رؤية عين .. ورؤية يقين .. ومعنى قوله تعالى : ﴿ حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾

هو ان الذين سيرون غير مؤمنين .. وإلا لو كانوا مؤمنين لعرفوا أنه الحق .. ولما احتاجوا إلى هذا الدليل المادى .. ولذلك فإن عددا من غير المؤمنين سيكشف الله لهم عن آياته فى الكون .. فلا يستطيعون أن ينكروا أنها من عند الله.. ولا يستطيعون أن يتكبروا ويقولوا أن هذا من عند أى بشر .. ولا يستطيعون أن يدعوا أنها المصادفة .. ولا يمكنهم إلا أن يعترفوا ولكنهم لا يؤمنون ..

ولقد اخترنا فى هذا الفصل أقوال عدد من العلماء الغربيين .. كلهم قبل أن يبدأوا الحديث قالوا: إننا علماء لا نصدق إلا ما نرى .. ولا نتعامل إلا مع الأشياء المادية البحتة. ولقد تجنبت الحديث عما قاله علماء مسلمون ولهم كشوفهم العلمية .. وبعضهم يعيش فى الغرب وله مكانته العلمية .. ذلك أن الإنسان المؤمن مندفع بحماس الإيمان إلى أن يصل إلى نتائج .. لأنه يجب أن يظهر إعجاز القرآن وفيه حماس لأن يجعل غيره يؤمنون .. ولذلك استبعدت كل ما قالوه .. وأخذت من أقوال الذين بدأوا جدلهم بأنه لا علاقة بين العلم والدين .. بل ادعوا أنهما نقيضان لا يلتقيان .

فالعلم يتحدث عن أشياء واقعية ترى وتشاهد .. والدين يتحدث عن أشياء غيبية يؤمن بها الناس .. وكان هذا فى رأيهم هو نقطة عدم الالتقاء ولكننا نقول لهم : انه لا إلزام عليكم فأنتم غير مؤمنين .. تستطيعون أن تقولوا إن ما جاء فى القرآن يختلف مع العلم ، ذلك أنه لا حرج عليكم فيما تقولون .. وأنتم لن تخالفوا ضمائركم .. ونحن على يقين من أن الله سبحانه وتعالى هو خالق الكون .. وأن القرآن الكريم هو كلام الله.. وإذا تكلم الخالق عن كونه فهو أعلم منا جميعا .

معجزة الجنين أذهلت العالم

إذا أردنا أن نبدأ بمعجزة الجنين وما ذكر عنها في القرآن الكريم منذ أكثر من أربعة عشر قرنا .. وما كشفه العلم يقينا وصوره وعرض علينا صوره .. إن علم الأجنة لم يعرفه العالم بشكل واضح إلا في القرن العشرين .. ففي القرن السابع عشر كان العلم يقول : الإنسان يخلق خلقا كاملا في الحيوان المنوي للرجل على صورته الإنسانية .. أي أنك إذا أخذت الحيوان المنوي واستطعت أن تكبره وجدت فيه الإنسان بكل تفاصيله مخلقا خلقا كاملا .. أي أن الإنسان لا يخلق على أطوار في بطن أمه بل يخلق مرة واحدة ..

و لكن في القرن الثامن عشر تغيرت الصورة عندما اكتشفوا بويضة المرأة وركز العلم على دور المرأة في الحمل وأهملوا دور الرجل .. وقالوا: إن بويضة المرأة هي التي فيها الإنسان الكامل لأنها الأكبر .. وأن نطفة الرجل هي مجرد عملية تلقيح فقط لا غير وظل هذا الرأي سائدا حتى القرن العشرين .. وجاء العلم الحديث ليغير الصورة تماما .. ويعطينا صورة جديدة للجنين في بطن أمه .. ويأتي بصور تثبت ذلك .. حتى إن العملية أصبحت أمرا يقينياً لأنه يمكن تصوير الجنين وهو يتطور وينمو في بطن أمه .

وكان للقرآن الكريم في هذا كلمة .. ذلك أن القرآن جاء بوصف دقيق لأطوار الجنين منذ أربعة عشر قرنا .. يوم أن كانت الدنيا كلها بكل من فيها وما فيها لا تعرف شيئا عما في بطن الأم .. وذكر القرآن لهذه الآيات لا يمكن أن يأتي إلا إذا كان هذا القرآن منزلا من عند الله .

ومـحـمـد النبي الأمي صلى الله عليه وسلم لم يكن يملك من العلم البشري شيئا .. وحتى لو كان يملك فلم يكن علم البشر يعرف شيئا .. وكما قلت فإن المخاطرة بذكر شيء علمي في القرآن لا يمكن أن يقدم عليها بشر .. لماذا ؟ .. لأن القرآن هو كلام الله الذي لا يتغير ولا يتبدل والمتعبد بتلاوته إلى يوم القيامة .. فكيف يكون موقف الدين .. وموقف المسلمين إذا ذكر في القرآن شيء يمس العلم البشري .. ثم جاءت الأبحاث وتقدمت العلوم واكتشفت أن هذا غير صحيح ؟ .. كانت ستضيع قضية الدين كله .. وما الذي يجعل محمد صلى الله عليه وسلم يخوض في هذه الأشياء التي كانت البشرية كلها تجهلها .. فيتطوع بإعطاء أعداء الدين ما يهدمونه به .

خلق الجنين فى القرآن

ماذا قال القرآن الكريم عن أطوار الجنين ؟ .. قال الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ﴾

(الآيات من ١٢ - ١٤ من سورة المؤمنون)

فإذا بدأنا بهذه الآية تفصيلا .. فهي تذكر أولا أن خلق الإنسان من طين .. ومعنى ذلك أنها حددت المادة التي خلق منها الإنسان وهي الطين

والطين موجود في كل مكان في الأرض .. والعلماء أخذوا الطين وحللوه ..
فوجدوه يتكون من ثمانية عشر عنصرا .. منها الحديد والبوتاسيوم
والمغنسيوم وغير ذلك من المواد .. ثم درسوا جسم الإنسان فوجدوه يتكون
من نفس هذه المواد.. وهى الثمانية عشر عنصرا التى يتكون منها الطين .
وهكذا جاءت الحقيقة الأولى .. حقيقة مشاهدة معملية لا تخضع للجدل..
ثم بدأ القرآن في وصف خلق الإنسان في بطن أمه.فتقول الآية الكريمة:

﴿ ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة ﴾

والقرار المكين هو رحم الأم .. ثم تأتى مسألة العلقة . ونترك الحديث
للبروفيسورالكندى كيث ل . مور .. وهو من أشهر علماء العالم فى علم
الأجنة .. ورئيس قسم التشريح والأجنة بجامعة تورنتو بكندا .. ورئيس
الاتحاد الكندى الأمريكى لعلماء الأجنة . وله عدة كتب مترجمة إلى ثمانى
لغات .. وهو الحائز على الجائزة الأولى فى العالم عن كتابه علم الأجنة ..
هذه الجائزة التى تعطى لأحسن الكتاب تأليفا ..

قال الدكتور كيث ل . مور: إن الجنين عندما يبدأ فى النمو فى بطن
أمه يكون شكله يشبه العلقة أو الدودة .. وعرض صورة بالأشعة لبداية
خلق الجنين ومعها صورة للعلقة .. فظهر التشابه واضحا بين الاثنين ..
ولما قيل له : إن العلقة عند العرب معناها الدم المتجمد .. ذهل .. وقال إن
ما ذكر فى القرآن ليس وصفا دقيقا فقط لشكل الجنين الخارجى .. ولكنه
وصف دقيق لتكوينه .. ذلك أنه فى مرحلة العلقة تكون الدماء محبوسة فى
العروق الدقيقة فى شكل الدم المتجمد .

فإذا جئنا إلى المرحلة الثانية فى قوله تعالى: ﴿ فخلقنا العلقة مضغة﴾

نعلم أن القرآن الكريم جاء بالوصف الدقيق .. فعندما عرضت صورة الأشعة المأخوذة للجنين وهو فى مرحلة المضغة .. وصورة قطعة من الصلصال أو اللبان الممضوغ .. وجد الشكل واحدا .. ثم أظهرت صورة الأشعة التى التقطت للجنين فى مرحلة المضغة وأن فيها تجويفات تشبه علامات الأسنان .. بل إن الله سبحانه وتعالى قد تجاوز مرحلة الشكل الخارجى إلى التكوين الداخلى .. فقال جل جلاله :

﴿ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾

(من الآية ٥ من سورة الحج)

وعندما جيء بالمضغة الآدمية من بطن الأم وطولها سنتيمتر واحد .. وتم تشريحها تحت الميكرسكوب الالكترونى .. وجد أن بعض أجهزة الجنين بدأت تتخلق وبعضها لم يتخلق ، ولو أن القرآن الكريم قال مضغة مخلقة .. لكان ذلك لا ينطبق على حقيقة التكوين .. لأن فيها أجزاء غير مخلقة .

دقة التعبير القرآنى

ولو قال القرآن الكريم مضغة غير مخلقة.. لكان ذلك لا يطابق حقيقة التكوين لأن فيها أجزاء مخلقة .. ولكن الوصف الدقيق الوحيد الذى ينطبق على المضغة هو قوله تعالى : ﴿ مضغة مخلقة وغير مخلقة ﴾ .

ولقد عرض العالم الكندى كل أطوار الجنين فى بطن أمه .. والتى التقطت بأحدث الأجهزة العلمية ، فإذا هى تنطبق تماما على كل ما ذكر فى القرآن الكريم . من مراحل تكوين العظام واللحم إلى غير ذلك .

ولما قيل للدكتور كيث ل . مور: هل كان من الممكن أن يعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه التفصيلات عن أطوار الجنين ؟ .. قال : مستحيل إن العالم كله في ذلك الوقت لم يكن يعرف أن الجنين يخلق أطوار .. فما بالكم بتحديد مراحل هذه الأطوار التي لم يستطع العلم حتى الآن أن يحددها بهذه السهولة والدقة .. بل إن العلم لم يستطع حتى الآن تسمية أطوار الجنين ، بل أعطاها أرقاما بشكل معقد غير مفهوم .. في حين جاءت في القرآن بأسماء محددة وبسيطة وغاية في الدقة يتضح لي أن هذه الأدلة حتما جاءت لمحمد من عند الله .. وهذا يثبت لي أن محمدا رسول الله .. فقيل له : بعد أن قلت ما قلت .. أفلا تسلم ؟ .. فقال إنه مستعد أن يضع في الطبعات القادمة من كتبه إشارة إلى ما علمت .

ولقد قرىء معنى الآيات التي جاءت في القرآن الكريم على أكبر علماء الأجنة في العالم .. فلم يجرؤ واحد منهم أن يدعي أن هناك تصادما بين ما جاء في القرآن الكريم وأحدث ما وصل إليه العلم.

النطفة .. والوراثة

ولكن أحدهم أثار أن الوراثة أو البرنامج الوراثي للإنسان يوجد في نطفة الرجل .. ويتحدد فيها تفاصيل الإنسان الذي سيولد أذكر أم أنثى .. ما هو لون العينين ولون الجلد ولون الشعر إلى آخره .. أي أن الإنسان تكون صفات خلقه موجودة في شفرة خاصة في نطفة الرجل .. فلما قرئت عليه الآية الكريمة :

﴿ قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (١٨) مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (١٩) ﴾

(الآيات ١٧و١٨و١٩ من سورة عبس)

قال : لا يمكن أن يكون هذا إلا من عند الله .

هذه الأبحاث كلها التى ذكرتها وشهادات العلماء مدونة ومسجلة بالصوت والصورة فى المؤتمرات المتعاقبة عن الإعجاز فى القرآن الكريم .. وهى مؤتمرات عقدت فى الدول الإسلامية المختلفة .. ويستطيع كل من يريد أن يرجع إلى هذه الأشرطة ويشاهد هؤلاء العلماء وهم يتحدثون ويتكلمون .. بل إن عالما منهم شهر إسلامه ، وشهد أنه لاإله إلا الله وأن محمدا رسول الله أمام الحاضرين فى أحد هذه المؤتمرات وهو البروفيسور التايلاندى تاجاثات تاجاسن .. وهو من أكبر علماء العالم فى علم التشريح .. وذلك عندما كان يتحدث عن الأعصاب .. وكيف أنها موجودة تحت الجلد مباشرة .. بحيث إذا احترق الجلد انتهى الإحساس بالألم تماما .. والله سبحانه وتعالى يقول عن أهل النار :

﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾

(الآية ٥٦ من سورة النساء)

ذلك أن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أن عذاب النار .. عذاب دائم ومستمر لا يخفف ولا يتوقف .. ولما كان فى علمه سبحانه وتعالى وهو الخالق .. أن الجلود إذا احترقت انتهى إحساس الإنسان بالألم .. نبهنا أن جلود أهل النار كلما احترقت بدلهم الله جلودا غيرها ليستمر شعورهم بالعذاب ..

قدرة القرآن فى الحاضر والمستقبل

وعندما عرض معنى هذه الآيات على البروفيسور تا جاثات جاسن .. قال : أهذا الكلام قيل منذ أربعة عشر قرنا ؟ .. قالوا نعم .. قال إن هذه الحقيقة لم يعرفها العلم إلا حديثا .. ولا يمكن أن يكون قائلها بشرا .. بل

هى من الله سبحانه وتعالى .. حان الوقت لأن أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله .

ولنا أن نتأمل فى هذه الآية الكريمة :

﴿ كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب ﴾

ماذا كان يمكن أن يحدث لو أن الله سبحانه وتعالى لم يلفتنا إلى أنه كلما احترقت جلود أهل النار بدلهم غيرها .. أكان من الممكن أن نعرف كيف سيستمر عذاب أهل النار بلا توقف وأن احساسهم بالعذاب دائم ؟!

الحقيقة العلمية تقول : إن الأعصاب موجودة تحت الجلد .. فإذا احترق الجلد فلن يحس الإنسان بالألم .. وهذا ما بينه لنا القرآن الكريم عن كيفية استمرار العذاب .. كان الكفار العاصون سيقولون سنعذب فترة قصيرة حتى تحترق جلودنا .. ثم بعد ذلك لا نحس بأى عذاب أو ألم .. ولكان هذا تشجيعا للإنسان على الاستهانة بعذاب الله فى الآخرة .. لأنه لن يستمر العذاب إلا لفترة قصيرة يحترق فيها الجلد وتموت تحته الأعصاب وينتهى العذاب .. لوجد هناك تصادم بين القرآن الكريم والحقائق العلمية .. فى أن الكفار سيخلدون فى عذاب جهنم .. وذلك فى قوله سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾

(الآيتان ٧٤ و ٧٥ من سورة الزخرف)

ولا يفتر معناها لا يخفف .. فكيف يقول الله سبحانه وتعالى : إن أهل جهنم سيخلدون فى العذاب .. وأنه لن يخفف عنهم .. مع أنهم إذا

احترقت جلودهم فقدوا الإحساس بالعذاب والألم .. ومن الذى أبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذه الحقيقة العلمية حول الإحساس بالألم .. وهذا ما لم يعرفه البشر إلا حديثا .. ألا يكفى هذا كدليل مادى على أن القرآن الكريم من عند الله ؟ .. ألا يكفى هذا أيضا كدليل مادى .. على أن الذى خلق هو الذى قال ؟ .. وإذا كان هذا قد دفع عالما من أكبر علماء علم التشريح وهو العارف بأسرار هذا العلم .. أن يعلن إسلامه أمام الناس فى مؤتمر عام .. وقد بهره الإعجاز الإلهى ووجد بين يديه الدليل المادى على وجود الله فنطق بالشهادتين .. ألا يكفى هذا ليؤمن العالم كله ويؤمن أهل الأرض جميعا ؟

الأصل الواحد للكون

ونحن نكتفى بهذا الجزء بالنسبة للإنسان .. ذلك أننا نريد أن نتحدث عن آيات أخرى فى الكون بالنسبة لغير الإنسان .. بالنسبة للكون نفسه .. والأصل الواحد للكون ..

يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

(الآية ٣٠ من سورة الأنبياء)

لقد عرض معنى هذه الآية فى مؤتمر الإعجاز القرآنى فى السعودية على الدكتور الفريد كرونر ، وهو من أشهر علماء العالم فى الچيولوچيا .. وعندما قرأ المعنى أخذ يصيح : مستحيل .. مستحيل أن تكون هذه

الحقائق قد ذكرت في أي كتاب منذ أربعة عشر قرنا . إننا لم نصل إلى هذه الحقيقة العلمية إلا منذ سنوات .. وباستخدام وسائل علمية متقدمة جدا وبعد دراسات معقدة طويلة خاصة بعلم الطبيعة النووية .. والأصل الواحد للكون لا يمكن أن يكون قد توصل إليه بشر منذ ألف وأربعمائة سنة .. ولكن الوسائل العلمية الحديثة الآن في وضع تستطيع أن تثبت ما قاله محمد منذ ألف وأربعمائة سنة .

ولعلنا جميعا ما زلنا نذكر تجربة صعود الإنسان إلى القمر .. وكيف كان العلماء يحلمون قبل إتمام هذه التجربة بالعناصر النادرة التي سيجدونها على سطح القمر .. وبالمواد التي سيحضرونها .. وكيف أنه سيكون فيها مواد تشفي أمراضا لا يوجد لها دواء على الأرض .. ومواد إذا أضيفت لعناصر الأرض نتجت عنها عناصر جديدة لم تعرفها البشرية وأخذت أحلامهم تزداد عما سيضيفونه إلى الكرة الأرضية من عناصرغير موجودة .. واشتد الخيال وامتلأت الرؤوس بالاحلام .

وجدوا على القمر لا إله إلاالله

ثم ماذا حدث ؟.. صعد الإنسان إلى القمر ومشى فوق سطحه.. وجـ بعينات من الصخور التي على السطح. ومن الصخور الموجودة تحت السطح وعادوا بها إلى الأرض . وإذا بهم يكتشفون أن سطح القمر مكون من نفس عناصر سطح الأرض ، وأن صخور القمر في تركيباتها هي نفس صخور الأرض وأنهما من أصل واحد !.

ألم يكن هذا كافيا كدليل مادي قوي لكي يؤمنوا ؟ .. ألم يكن إثبات نظرية الأصل الواحد للسموات والأرض .. الذي أخبرنا الله به سبحانه

وتعالى في القرآن الكريم .. منذ أكثر من ألف وأربعمائة سنة دليلا كافيا على وجود الله .. وعلى أنه الخالق ؟.. إن العالم الذي قال : إن الوسائل العلمية الحديثة الآن في وضع تستطيع أن تثبت ما قاله محمد منذ ألف وأربعمائة سنة ، وهو البروفيسور ألفريد كرونر .. عالم مراوغ جدا .. حتى إنه كان يحاول أن يتهرب من الإجابة .. لكيلا يشهد بأن هذا العلم قد أنزل من الله سبحانه وتعالى .. حتى أنه في كل ما قاله كان يقول : (إن ما قاله محمد) فقالوا له : سنثبت لك أن محمدا لم يكن ينطق إلا بوحي من الله.. وأنه في عدد من الأحاديث النبوية إعجاز نرجو أن تفسره لنا ..

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث رواه أبو هريرة وجاء في البخاري ومسلم .. روى حديثا يقول في جزء منه : لا تقوم الساعة حتى تعود أرض العرب مروجا وأنهارا) .. أي مزارع وبساتين وأنهارا .. ولما سئل الدكتور كرونر هل كانت أرض العرب بساتين وأنهارا كما روى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : نعم .. فقيل له متى كان ذلك ؟ .. قال في العصر الجليدي الأول الذي مر به العالم في عصوره الأولى ..

وسئل كرونر من الذي أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذه الحقيقة ؟.. قال : ربما علم ذلك من الرومان الذين كانوا متقدمين في هذه العلوم .. فسألوه هل تعود بلاد العرب بساتين وأنهارا مرة أخرى ؟ .. قال نعم هذه حقيقة علمية .. قالوا كيف تقول على شيء سيقع في المستقبل أنه حقيقة علمية .. قال لأن العصر الجليدي الثاني بدأ .. ومن مقدماته ذلك الشتاء القارس والعواصف الثلجية التي بدأت تزحف على أوربا في السنوات الأخيرة وكل شتاء سيأتي سيكون أقسى من الذي قبله ، فكتلة

الجليد في القطب الشمالي بدأت تزحف ببطء نحو الجنوب .. وهي في كل عام تقترب .. ولكن ببطء جدا من المنطقة التي فيها بلاد العرب .. عندما يزداد هذا الاقتراب بعد فترة طويلة من منطقة بلاد العرب ستعود بساتين وأنهارا .

والعجيب أنه حدث أن غمرت الثلوج بعض أراضي السعودية لأول مرة منذ قرون طويلة .. وصلت درجة الحرارة في بعض هذه المناطق إلى عدة درجات تحت الصفر .

وعندما سئل الدكتور كرونر : هل الرومان هم الذين أخبروا رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن بلاد العرب ستعود بساتين وأنهارا ؟ .. قال : لا يمكن أن يحدث ذلك إلا بوحي من السماء .

إعجاز .. يتلوه إعجاز

نعود إلى الآية الكريمة : ﴿ أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون﴾

في هذه الآية أعطانا الله سرا من أسرار الحياة وهو الماء .

ولقد أصبح هذا حقيقة علمية يعترف بها العالم أجمع .. فالصور الحديثة التي تلتقط بالأقمار الصناعية وسفن الفضاء والكواكب القريبة من الأرض .. يستطيع العلماء أن يتنبؤا إذا كان في هذه الكواكب حياة أم لا رغم أن هذه الصور لا تأتي بالتفاصيل الدقيقة التي تبين إذا كانت هناك مخلوقات موجودة على سطح هذه الكوكب أم لا ..

ولكن مجرد علمهم بأن الصور لا تدل على وجود الماء على سطح الكواكب فإنهم يؤكدون أنه لا حياة فيه .. فإذا كان هناك ما يشير إلى أن

الماء موجود تحدثوا عن احتمالات الحياة .. وعملية وجود الماء هى من قدرة الله سبحانه وتعالى التى احتفظ بها لنفسه .. وهى عندنا فى الأرض تتم دون عمل من الإنسان .. بل هى عطاء من الله.. بخار الماء يصعد من المحيطات والبحار .. ويتكثف فى طبقات الجو العليا وينزل مطرا .. ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى فى سورة الواقعة :

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

(الآيات من ٦٧ — ٧٠ من سورة الواقعة)

إذن الماء هو رزق من السماء بقدرة الله.. وكل من يدعى غير ذلك نطالبه أن ينشىء لنا نهرا صغيرا وسط الصحراء .. ويملأه بالماء إن كان يستطيع . ولن يستطيع .. ولكن اعتراف العلم ويقينه من أن وجود الماء معناه وجود الحياة .. لم يلفتهم إلى ما ذكره القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرنا .. وكان يجب أن يلتفتوا إلى هذا الإعجاز .. فيؤمنوا بالله خالقا وموجودا وإلها واحدا .. ولذلك يقول الحق جل جلاله : ﴿ أفلا يؤمنون ﴾

السماء والدخان وأصل الخلق

لقد قدم لهم الدليل المادى فى الأصل الواحد للسموات والأرض .. ومن أن الماء هو سر الحياة .. فإن لم يؤمنوا ، حينئذ يكون عدم إيمانهم مكابرة وعنادا .. ويكون عذابهم فى جهنم عدلا من الله .. الذى أعطاهم الدليل تلو الدليل .. ومع ذلك لا يؤمنون .

وقبل أن نترك السماء وآياتها ..لابد أن نتحدث عن الإعجاز فى خلق السموات والأرض .. نحن ننظر إلى السماء ونرى أشياء وتغيب عنا أشياء

مثلا عندما عرض معنى الآية الكريمة :

﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ ﴾

(الآية ١١ من سورة فصلت)

قرأ البروفيسور يوشيدى كوزاى مدير مرصد طوكيو هذا الكلام وقال: إن العلم لم يصل إلا منذ فترة بسيطة جدا إلى أن السماء كانت دخانا وقد أصبح هذا شيئا مشهودا ومرئيا الآن . بعد إطلاق سفن الفضاء والأقمار الصناعية وعرض صور التقطت لنجم فى السماء وهو يتكون .. وقد بدا كتلة من الدخان فى وسطها تكون الجزء المضيء من النجم وحوله الدخان وتحيط بالدخان حافة حمراء دليل على ارتفاع درجة الحرارة ..

وقال : لقد كنا نعتقد منذ سنوات فقط أن السماء كانت ضبابا ولكننا عرفنا الآن بعد التقدم العلمي بأنها ليست ضبابا ولكنها دخان .. لأن الضباب خامد وبارد .. والدخان حار وفيه حركة .. وهذا يدل على أن السماء كانت دخانا .. وقال إننى متأثر جدا باكتشاف هذه الحقيقة فى القرآن .

الحديد نزل من السماء

وإذا كنا نريد أن نمضى فى التفاصيل .. ليقتنع من لم يقتنع .. فإننا نستعرض بسرعة بعض ما قاله أشهر علماء العالم في مؤتمرات الإعجاز العلمي للقرآن الكريم .. الدكتور استروخ وهو من أشهر علماء وكالة ناسا الأمريكية للفضاء .. قال : لقد أجرينا أبحاثا كثيرة على معادن الأرض

وأبحاثا معملية .. ولكن المعدن الوحيد الذى يحير العلماء هو الحديد .. قدرات الحديد لها تكوين مميز .. إن الالكترونات والنيترونات فى ذرة الحديد لكى تتحد فهى محتاجة إلى طاقة هائلة تبلغ أربع مرات مجموع الطاقة الموجودة في مجموعتنا الشمسية .. ولذلك فلا يمكن أن يكون الحديد قد تكون على الأرض .. ولابد أنه عنصر غريب وفد إلى الأرض ولم يتكون فيها .. فلما ترجموا له معنى الآية الكريمة :

﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾

(من الآية ٢٥ من سورة الحديد)

قال : ان هذا الكلام لا يمكن أن يكون من كلام بشر .

فإذا تركنا السماء وأسرارها ونزلنا إلى أعماق البحار وجدنا شيئا عجيبا .. إن الصور الحديثة التى التقطت للبحار قد اثبتت أن بحار الدنيا ليست موحدة التكوين .. بل هى تختلف فى الحرارة والملوحة والكثافة ونسبة الاكسوچين .. وفى صورة التقطت بالأقمار الصناعية .. ظهر كل بحر بلون مختلف عن البحر الآخر .. فبعضها أزرق قاتم، وبعضها أسود وبعضها أصفر .. وذلك بسبب اختلاف درجات الحرارة فى كل بحر عن الآخر .. وقد التقطت هذه الصورة بالخاصية الحرارية .. وبالأقمار الصناعية ومن سفن الفضاء .. وظهر خط أبيض رفيع يفصل بين كل بحر وآخر .. فإذا قرأت الآية الكريمة :

﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ ﴾

(الآيتان ١٩و٢٠ من سورة الرحمن)

نجد أن وسائل العلم الحديثة قد وصلت إلى تصوير البرزخ بين البحرين .. وبينت معنى « لا يبغيان » .. بأن مياه أى بحر حين تدخل إلى

البحر الآخر عن طريق البرزخ .. فإنها تأخذ وقت دخولها خصائص البحر الذي تدخل فيه .. فلا تبغي مياه بحر على مياه بحر آخر فتغيرها .

موج .. من فوقه موج

ولقد تم الوصول إلى هذه الحقائق بعد إقامة مئات من المحطات البحرية .. والتقاط الصور بالأقمار الصناعية .. والذي قال هذا الكلام هو البروفيسور شرايدر ، وهو من أكبر علماء البحار بألمانيا الغربية .. كان يقول : إذا تقدم العلم فلابد أن يتراجع الدين .. لكنه عندما سمع معاني آيات القرآن بهت وقال : إن هذا لا يمكن أن يكون كلام بشر .

ويأتي البروفيسور دورجارو أستاذ علم جيولوجيا البحار ليعطينا ما وصل إليه العلم في قوله تعالى :

﴿ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ ﴾

(الآية ٤٠ من سورة النور)

فيقول لقد كان الإنسان في الماضي لا يستطيع أن يغوص بدون استخدام الآلات أكثر من عشرين مترا .. ولكننا نغوص الآن في أعماق البحار بواسطة المعدات الحديثة .. فنجد ظلاما شديدا على عمق مائتي متر ..

الآية الكريمة تقول : ﴿ بحر لجي ﴾ .. كما أعطتنا اكتشافات أعماق البحار صورة لمعنى قوله تعالى : ﴿ ظلمات بعضها فوق بعض ﴾ ..

فالمعروف أن ألوان الطيف سبعة .. منها الأحمر والأصفر والأزرق والأخضر والبرتقالى إلى آخره .. فإذا غصنا فى أعماق البحر تختفى هذه الألوان واحدا بعد الآخر .. واختفاء كل لون يعطى ظلمة .

فالأحمر يختفى أولا ثم البرتقالى ثم الأصفر .. وآخر الألوان اختفاء هو اللون الأزرق على عمق مائتى متر .. كل لون يختفى يعطى جزءا من الظلمة حتى تصل إلى الظلمة الكاملة .. أما قوله تعالى :

﴿ موج من فوقه موج ﴾ .. فقد ثبت علميا أن هناك فاصلا بين الجزء العميق من البحر والجزء العلوى .. وأن هذا الفاصل ملىء بالأمواج .. فكأن هناك أمواجا على حافة الجزء العميق المظلم من البحر وهذه لا نراها وهناك أمواج على سطح البحر وهذه نراها .. فكأنها موج من فوقه موج.. وهذه حقيقة علمية مؤكدة .

ولذلك قال البروفيسور دورجاروا عن هذه الآيات القرآنية : إن هذا لا يمكن أن يكون علما بشريا .

الجبال .. والأوتاد

وإذا كانت العلوم الحديثة أكدت أن للجبال جذورا عميقة فى الأرض .. وهو ما لم يكن معروفا .. ففى كل الخرائط الجغرافية تظهر الجبال بلا جذور ممتدة داخل الأرض .. ولكن الصور الأخيرة التى التقطت للجبال .. ظهر فيها أن لكل جبل وتدا يقويه يسميه العلماء جذرا .. وأن هذا الجذر يمتد إلى أعماق بعيدة .. وهكذا ظهر إعجاز الآية الكريمة :



(الآية ٧ من سورة النبأ)

ثم جاءت حقيقة أخرى في قوله تعالى :

﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ ﴾

(الآية ١ ومن الآية الثانية من سورة الروم)

وقد فسرت أدنى على أساس أنها قريبة من أرض العرب .. فقد حدثت المعركة قرب بيت المقدس .. وجاءت الخرائط الچيولوچية التي صورت أخيرا بالأقمار الصناعية .. لتثبت أن المنطقة التي دارت فيها المعركة هي أكثر الأماكن انخفاضا على سطح الأرض .. لأن أدنى تعني المكان المنخفض .

لقد أوردنا عددا من الأبحاث التي تمت في مؤتمرات الإعجاز العلمي للقرآن الكريم .. والتي شارك فيها عدد من أكبر علماء العالم في مختلف فروع العلم من غير المؤمنين .. والذين شهدوا جميعا أن الآيات القرآنية التي قرئت عليهم معانيها .. لا يمكن أن تكون إلا من وحي إلهي .. ومن خالق لهذا الكون .. نقول للناس جميعا : يكفي أن كل ما قلنا كأدلة علمية على وجود الله .. كلها جاءت من أفواه الذين لا يؤمنون .. ورفضوا الإيمان حتى بعد أن سمعوا هذا الإعجاز القرآني ..

إن كل ما أوردناه ليس مجال بحث ولكنه قائم على المشاهدة والرؤية .. وعلى صور عرضت وقدمت .. ولم يكن الذين قدموا هذه الصور يهمهم إثبات معجزات وآيات القرآن الكريم .. بل إن معظمهم كان يقول : إذا جاء العلم فليتراجع الدين .. وبعضهم عارض في أول الأمر في الاشتراك في حوار يدخل فيه الدين .

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد استخدم غير المؤمنين في إثبات قضية الإيمان .. فلابد أن نعلم أن المؤمن والكافر .. كليهما يخدم قضية الإيمان في الكون .

الفصل السادس:

وفي كل شيء دليل

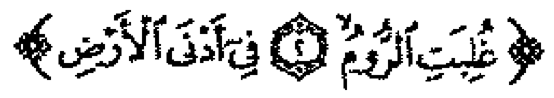
الله سبحانه وتعالى جعل
القرآن معجزة باقية إلى يوم
القيامة .. ولذلك وضع فيه
الدليل تلو الدليل على
مايتحدى به غير المؤمنين
ليرد على ادعاءاتهم .. ولقد
قيل إن عصر المعجزات
انتهى .. ولكن معجزات
القرآن لا تنتهي حتى تقوم
الساعة .. ومعاني الآيات لا
تتضح في عصر واحد

بل كل عصر نصل إلى معنى لم نكن قد وصلنا إليه .. والقرآن معجزة ومنهج . المنهج وهو مارسمه الله لنا كطريق العبادة والحياة تم تفسيره وبيانه كاملا في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم .. فالعبادات والمعاملات وغيرهما فيما يتصل بأفعل ولا تفعل .. بينه رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فالصلوات المفروضة فيه مثلا خمس لا تزيد ولا تنقص إلى يوم القيامة وكذلك الأحكام وكل ما يتعلق بمنهج السماء .. كلها أشياء حسمت وبينت تماماً .. ولكن المعجزة في القرآن الكريم هي التي بقيت لتعطى كل جيل معنى إعجازيا لم يصل إليه الجيل الذي قبله.

ولو أن معجزة القرآن توقفت عند النزول لجمد القرآن فلم يعد يعطى شيئا جديداً .. ولكن لأن هذا الكتاب معجزة باقية متجددة .. فهو يعطى لكل جيل عطاء جديداً .. وهكذا نجد في كل عصر عطاء القرآن لم يكن موجوداً في العصر الذي قبله.

فإذا قرأنا مثلا الآية الكريمة:



(الآية الثانية من سورة الروم)

وجدنا أن عطاء ﴿ أدنى ﴾ حين نزل القرآن كانت - كما قلنا - بمعنى المكان القريب لأرض العرب .. ولما تقدم العلم واستطاع الإنسان أن يصور سطح الأرض بالأقمار الصناعية .. وجد أن مكان المعركة بين الروم والفرس هو أكثر الأماكن انخفاضاً على سطح الأرض .. وإذا قرأنا الآية الكريمة:

﴿ إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ﴾

(من الآية ٤٢ من سورة الأنفال)

نجد أن الله سبحانه وتعالى قد حدد ثلاثة مواقع .. موقع المؤمنين وهم قريبون إلى المدينة المنورة .. وموقع الكفار وهم بعيدون عن مكة المكرمة .. أى أن المؤمنين أقرب إلى مدينتهم وأهلهم .. والكفار بعيدون عن مدينتهم وأهلهم .. ثم قال تعالى : **﴿ والركب أسفل منكم ﴾**

والركب هو قافلة أبو سفيان التى أفلتت من المؤمنين.

والمعروف أن أبا سيفان لكى يفلت بقافلته من المؤمنين غير مساره واتخذ طريق الساحل .. وهنا يجب أن نلتفت إلى قوله تعالى :

﴿ أسفل منكم ﴾

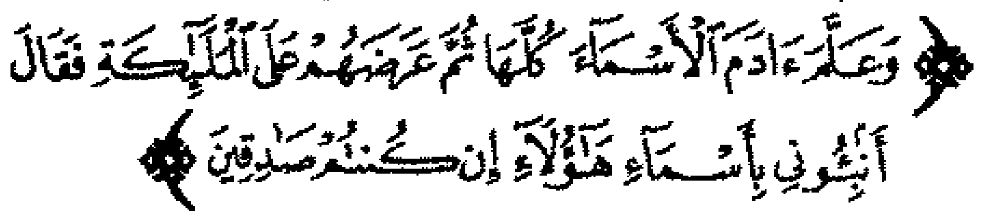
أى موقع منخفض عنكم.

والمعروف أن ساحل البحر هو أكثر الأماكن انخفاضاً فى الأرض .. ولذلك تقاس كل الارتفاعات بسطح البحر .. فيقال : هذا المكان يعلو ألف متر مثلا عن سطح البحر أو مائة متر أو غير ذلك.

إذن فسطح البحر المقياس الذى اتخذه العالم كله ليساوى صفراً فى الارتفاع .. تقاس عليه كل الارتفاعات فى الدنيا .. ولذلك قوله تعالى: ﴿ أسفل منكم ﴾.. يلفتنا إلى هذه الحقيقة .. ولكن القرآن الكريم لم يكتف بأن يبين هذا .. بل بين لنا أن هناك بقعة على سطح الأرض هى أكثر البقع انخفاضاً على سطحها .. وهى التى دارت فيها المعركة بين الروم والفرس.

أصل العلم من الله

وإذا قرأنا القرآن الكريم .. نجد أن الحق سبحانه وتعالى قد لفتنا إلى مصدر العلم للبشرية كلها .. فقال سبحانه وتعالى:



﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾

(من الآية ٣١ من سورة البقرة)

وهكذا حدد القرآن الكريم في إعجاز مذهل مدخل العلم إلى البشر .. فأنت حين تريد أن تعلم طفلك عندما يبدأ يميز الأشياء .. لا بد أن تعلمه الأسماء أولا .. فتقول له : هذا كوب وهذا قلم وهذا كرسي .. وهذا طعام إلى آخر ذلك ..

ونحن إذا لم نعلم الطفل هذه الأسماء فإنه لا يستطيع أن يفهم شيئاً ولكنه إذا تعلم الأسماء أصبح بعد ذلك قادراً على استيعاب العلم .. ولذلك ففي الدنيا كلها وبالنسبة للبشرية كلها .. لا بد أن نبدأ بأن نعلم أطفالنا أسماء الأشياء .. ثم بعد ذلك تختلف نظم التعليم من دولة إلى أخرى ومن طريقة إلى أخرى .. ولكنها كلها لا بد أن تبدأ بتعليم الأسماء .. وهكذا نعرف أن بداية العلم من الله سبحانه وتعالى.

فقد بدأ الحق جل جلاله بتعليم الإنسان الأسماء .. وما زالت هذه البداية موجودة حتى الآن في كل نظم التعليم .. الأسماء أولا .. فإذا تعلم الطفل الأسماء بدأ يستوعب أي شيء آخر .. ونحن لا نعلم الطفل الأسماء في المدرسة فقط .

ولكن هذا هو علم الفطرة .. تبدؤه الأم مع طفلها قبل أن يذهب إلى المدرسة .. والأم المتعلمة وتلك التى لم تنل حظا من التعليم .. كلتاهما تبدأ بتعليم ابنها الأسماء .. لأن علم الفطرة تكون منه البداية دائماً .. ثم بعد ذلك يتطور ويتبدل .. ولا يمكن أن يتم التفاهم بين الأم وطفلها ولا بين طفل وطفل آخر إلا إذا تعلما الأسماء أولا .. والعلم فى الدول المتقدمة والدول المتخلفة لابد أن يبدأ بالأسماء باعتبارها أساس التفاهم فى الحياة ولكن هناك إعجازاً آخر بالعلم البشرى .. لابد أن نلتفت إليه .. وهو يحمل إلينا الدليل اللغوى على وجود الله.

اللغة . .تدل على الوجود

فاللغة هى أساس التفاهم بين البشر .. واللغة ليست بيئة ولا حضارة ولا جنسا ولا لونا .. ولكنها تعتمد أساساً على السماع .. فإذا سمع الإنسان تكلم ، وإذا لم يسمع لا يتكلم .. ولذلك تجد دائماً أن الأصم الذى لا يسمع أبكم لا ينطق.. فيقال دائماً : الصم والبكم .. لأن أساس الكلام هو السماع ..

ولكى نفهم هذه الحقيقة جيداً وهى أن اللغة لا علاقة لها إلا بالسمع .. نقول : إننا إذا أتينا بطفل عربى وأخذناه بعد ولادته إلى بريطانيا مثلا .. بحيث لا يسمع إلا اللغة الإنجليزية .. نجد أن هذا الطفل يتكلم الإنجليزية فإذا حاولت أن تتحدث معه باللغة العربية فإنه لايفهمك .. مع أنه عربى الأصل .. من أب وأم عربيين .. ولكنه لا يستطيع أن ينطق حرفاً واحداً من اللغة العربية لأنه لم يسمعها .. فإذا جئنا بطفل إنجليزى وأخذناه إلى

بلاد العرب فإنه سينشأ وهو يتكلم اللغة العربية .. ولا يعرف حرفاً من الإنجليزية .. مع أنه من أصل إنجليزى .. وإذا أتينا بطفل إفريقى وكررنا معه نفس التجربة فسنحصل على نفس النتيجة .. إذن فاللغة لا علاقة لها بالأصل ولا باللون ولا بأى شئ آخر غير السماع.

وآدم حين خلقه الله وخلق حواء .. لابد أنه كان بينهما طريقة للتفاهم وإلا كيف تفاهما ؟..

لا بد أنه كان بينهما لغة ما تفاهما بها .. ثم جاء أولاد آدم فكان بين آدم وحواء وأولادهما لغة التفاهم سجلها الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم فى قوله سبحانه :

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾

(الآية ٢٧ من سورة المائدة)

إذن الثابت يقينا من القرآن الكريم أنه كانت هناك وسيلة للكلام بين آدم وأولاده .. وإذا كنا قد أثبتنا بالدليل المادى أن الإنسان لا يمكن أن يتكلم إلا إذا كان قد سمع .. وأن اللغة أساسها السماع .. فلابد أن آدم قد سمع حتى يستطيع أن يتكلم .. فإذا قال لنا الله سبحانه وتعالى :

﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ﴾.

إذن فلابد أن يكون آدم قد سمع الأسماء من الله سبحانه وتعالى ، وبما أن السمع هو وسيلة النطق بالكلام .. فكأن سماع آدم للأسماء من الله هو الذى علمه الكلام .. بدليل أن الله سبحانه وتعالى قال :

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(الآيات من ٣١ - ٣٣ من سورة البقرة)

أى أن آدم تكلم وأنبأ الملائكة بالأسماء التى علمها الله له .. وإذا كان آدم نطق وتكلم فلابد أنه سمع من الله سبحانه .. وحواء سمعت من آدم فتكلمت .. وأولاد آدم وحواء سمعوا منهما فتكلموا.

الكلام من السماع

هناك بعض الناس يقول : إن الإنسان الأول لم يكن يتكلم ، وإنما كان يتفاهم بالإشارة ثم بعد ذلك تكلم .. ونقول : إن هذا غير صحيح .. لأن أى إنسان لكى يتكلم لابد أن يسمع أولا .. فممن سمع أول إنسان تكلم سواء كان آدم أو من بعده ؟ .. إن الكلام لا يأتى إلا بالسماع .. والذين يتفاهمون بالإشارة يظلون طوال حياتهم يتفاهمون بنفس الأسلوب .. إلا إذا سمعوا من غيرهم .. حينئذ تبدأ عندهم ملكة الكلام .. والصم والبكم الذين يعالجون من هذا الداء .. إذا لم يسمعوا فلن يتكلموا.

فإذا قال أحدهم إن البشر يتحدثون بلغات مختلفة ولهجات مختلفة .. نقول إن هذا دليل لنا وليس علينا أن اللغة مصدرها البيئة .. وليس الجنس

أو اللون أو أى شئ آخر .. وإن الكلام ليس صفة وراثية تولد مع الإنسان ولكنها صفة سمعية فلابد من السمع أولا.

وهكذا تعطينا القرائن كلها أن الله سبحانه وتعالى هو الذى علم البشرية الكلام بأن علم آدم الأسماء .. ولا يمكن أن تكون هناك بداية ـ علما ولا عقلا ـ إلا هذه البداية التي ذكرها الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم .

لفظ الجلالة وإعجاز التحدى

وإذا كنا نريد أن نمضى فى هذا الإعجاز فأمامنا مجالات كثيرة .. لفظ الجلالة .. كلمة : « الله » سبحانه وتعالى .. من أين جاء ت ؟.. إن الثابت لغويا أن المعنى لابد أن يوجد أولا ثم يوجد اللفظ أو الاسم .. فإذا لم يوجد المعنى لا يوجد اللفظ فى اللغة .. وكل الاختراعات الحديثة التى لم تكن البشرية تعرف عنها شيئاً لم توجد لها أسماء إلا بعد أن وجدت وعرفناها .. والإنسان لا يستطيع أن يفهم الكلام إلا إذا كان المعنى موجوداً فى عقله .. ولذلك فإن المجامع اللغوية فى العالم تضيف كل فترة ألفاظاً لمعان لم تكن موجودة ثم وجدت .. فكان لابد أن توجد لها ألفا تعبر عنها.

وعلى أية حال فإن العقل البشرى يعجز عن فهم أى لفظ إذا لم يوجد فى عقولنا المعنى أولا .. حتى أنك إذا حدثت أى إنسان بلفظ لا يفهمه .. فلابد أن يعرف المعنى أولا ثم بعد ذلك يفهم اللفظ.. ولكن الله سبحانه وتعالى غيب عنا .. لم يره أحد .. ومع ذلك فإن لفظ الجلالة موجود فى كل لغات العالم .. والعقول كلها تفهمه .. فكيف يمكن أن يحدث هذا ؟ إلا إذا كان فى داخلنا الإيمان الفطرى الذى يعرفنا معنى لفظ الجلالة.

وهنا تأتى الآية الكريمة لتبين لنا هذا الإعجاز فيقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ ﴾

(الآية ١٨ من سورة آل عمران)

إذن فلابد أن الله قد اشهدنا على نفسه ، وعندما ذكر لفظ الجلالة فهمناه .. ولابد أنه سبحانه وتعالى أشهد البشرية كلها .. لأنه لا توجد لغة في العالم ليس فيها لفظ الجلالة .. بل إن التحدى والإعجاز الإلهى يمضى أكثر من ذلك .. فيقول الله سبحانه وتعالى فى كتابه الكريم :

﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَـٰدَتِهِۦ ﴾

(الآية ٦٥ من سورة مريم)

وهكذا أخبرنا الحق سبحانه وتعالى أن لفظ الجلالة لن يطلق على أحد غير ذاته الكريمة .. وهكذا تحدى الله البشرية كلها فى أمر اختيارى .. فالاسم هو شئ من اختيار الإنسان .. ويوجد فى هذا الكون الكفرة والملحدون وشياطين الإنس وغيرهم .. فهل سمعت عن واحد سمى نفسه الله ؟ .. أو اسمى ابنه الله ؟ .. لم يحدث ولن يحدث .. لأن الحق سبحانه وتعالى اختص بهذا الاسم ذاته الكريمة .. فلا يمكن لبشر أن يتخطى مراد الله ليطلق لفظ الجلالة على نفسه أو أحد أولاده .. بل إن الذين ادعوا الالوهية مثل فرعون وغيره .. ونصبوا أنفسهم آلهة يعبدون من دون الله .. لم يجرؤ واحد منهم ولم يخطر على باله أن يسمى نفسه الله .

وهكذا جاء التحدى للبشر جميعاً فى أمر اختيارى ليؤكد للدنيا كلها . أن أحداً لا يستطيع أن يخالف مرادات الله في كونه.. ولو كانت هذه المخالفة في منطقة الاختيار للإنسان ، ولو كانت هذه المخالفة من ملحد محارب لدين الله يريد الاضلال في الأرض .. أيوجد دليل مادى أكبر من هذا ؟

التعداد دليل مع القرآن

فإذا تركنا الأدلة اللغوية فإننا نجد هناك دليلا إحصائيا على وجود الحق سبحانه وتعالى .. فالله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ ﴾

(الآية ١٣ من سورة الحجرات)

الحق سبحانه وتعالى يخبرنا أن الخلق بدأ من ذكر وأنثى وهما آدم وحواء .. ثم جاء منهما كل هذا الخلق الذى نراه .. الدليل الإيمانى على ذلك أن الله هو الذى قال .. والدليل المادى على ذلك هو أن علم الاحصاء يقول ذلك .. فإذا تتبعنا البشر في الكون نجد أن تعداد الناس فى العالم اليوم يصل إلى كذا بليون نسمة.

فإذا فرضنا مثلا أن تعداد سكان العالم اليوم خمسة آلاف مليون .. فكم كان عدد سكان العالم منذ قرن مضى ؟ .. ستجد أن تعدادهم كان أقل .. مثلا أربعة آلاف مليون ومنذ ثلاثة قرون مثلا كم كان عدد سكان العالم ؟ طبعاً كانوا أقل.

ومنذ عشرين قرناً من الزمان كم كان عدد سكان العالم ؟ .. نقول إنهم كانوابضعة ملايين .. ومنذ ثلاثين قرنا من الزمان كم كان عدد سكان العالم ؟ .. نقول كانوا مليونين أو ثلاثة .. إذاً كلما عدنا بالزمان إلى الوراء نجد أن عدد البشرية يتناقص .. وكلما تقدمنا بالزمن نجد أن عدد البشرية يتزايد .. أليست هذه حقيقة إحصائية ؟ ..

أيستطيع أحد من الماديين أو غير المؤمنين أن ينكر أنه كلما عدنا بالزمن إلى الوراء ، فإن عدد البشر يتناقص ؟ .. وإذا كانت هذه هي القاعدة المعترف بها .. فمعنى ذلك أنه كلما عدنا إلى الماضي تناقص عدد البشر.. ويظل عدد البشر يتناقص ويتناقص حتى تصل إلى نقطة البداية التي بدأت عندها حياة البشر .. فتكون هذه النقطة من ذكر وأنثى ..

إذن التناقص في عدد البشرية الذي عرفناه وسجلناه بالاحصاءات لابد أن ينتهي إلى البداية التي بدأ منها تكاثر هذا الخلق وهما الذكر والأنثى .. وكلما مر الزمن زادت أعداد البشر حتى وصلنا إلى تعداد العالم الآن.

فلو أن تعداد البشر كان يتناقص مع الزمن .. أي أن الدنيا بدأت بألف مليون إنسان وانتهت في عصرنا هذا بمائة مليون .. لكان ذلك يؤكد لنا أنه من المستحيل أن تكون البشرية قد بدأت بذكر وأنثى .. لأن الدليل العلمي سيكون في هذه الحالة شاهداً على أن ذلك لا يمكن أن يحدث.

ولكن كون البشر يتزايد عددهم مع مرور الزمن ويتناقص عددهم كلما عدنا إلى الوراء في الماضي .. حتى أنه في العصور الأولى لم تكن إلا أجزاء صغيرة من الأرض يعيش فيها الناس .. والباقي لا يوجد فيه أحد فهذا يعطينا الدليل على أن البداية كانت من ذكر وأنثى.

معجزة جيش أبرهة

فإذا ذهبنا إلى التاريخ فنحن نجد فيه الدليل المادي على وجود الله سبحانه وتعالى .. وعلى علمه وعلى معجزاته .. اقرأ قوله تعالى في هذه السورة الكريمة .. سورة الفيل :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥ ﴾

(سورة الفيل)

هذه معجزة لم يأت بها رسول .. ولم تنزل لتثبيت الإيمان على قوم نبي كان يدعو قومه للإيمان وهم لا يؤمنون .. ولكنها حدثت لإثبات القدسية والحماية لبيت الله الحرام .

ولقد ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم في عام الفيل .. وكانت هذ المعجزة علامة على أن دين الله الذي سينزل على هذا الرسول إذا تخلى عنه البشر جميعاً .. فإن الله جل جلاله سيحميه ويحفظه .

والقصة معروفة وبطلها ملك الحبشة في ذلك الوقت أبرهه .. الذي بنى بيتاً ليحج إليه الناس بدلا من الكعبة .. وجاء بعض الأعراب وألقوا فيه قاذورات ، فصمم أبرهة أن ينتقم بهدم الكعبة .. وأخذ جيشاً ضخماً وعدداً كبيراً من الأفيال وذهب إلى مكة .. فلما رأى أهل مكة هذا الجيش هربوا وفروا .. فجاء الطير وألقى عليهم بحجارة من جهنم قضت على أبرهة وجيشه وأفياله في دقائق.

القصة يرفض تصديقها العقل غير المؤمن .. إذ كيف يمكن لطير صغير أن يقضى على جيش من الأفيال .. بينما لو وقفت مئات من الطير على جسد فيل واحد لا يحس بها .. ولقد توقف بعض العلماء عند هذه السورة الكريمة فقالوا: إن الله أرسل جراثيم لتقضى على أبرهة وجيشه .. وكأنهم يريدون أن يسهلوا الأمر على الله ا، مع أن الله على كل شئ قدير.. نقول : لقد ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عام الفيل .. وبعث فى الاربعين .. ونزلت هذه السورة فى مكة فى بداية الدعوة الإسلامية .. وكان الكفارهم القوة والعزة .. والمسلمون هم القلة والضعف .. وكان الكفار يبحثون عن أى شئ للطعن فى الدين الإسلامى.

نقول : إن هذه السورة نزلت فى مكة .. والرسول صلى الله عليه وسلم كلفه الله بالرسالة وعمره أربعون سنة .. أى أن هناك من أهل مكة من كان يبلغ الخامسة والخمسين والستين والخامسة والستين والسبعين وهم قد شهدوا هذه المعجزة، ورأوها رؤية العين .. ولو أن الطير لم تأت وجيش أبرهة لم يتم إفناؤه فى لحظات .. لقال هؤلا الناس : إن هذا الكلام غير صحيح .. ولقد كنا موجودين فى مكة فى هذا الوقت ولم نر طيرا جاءت ولا جيشا أفنى .. ولطعنوا بذلك فى الإسلام وفى القرآن وفى أنه كلام الله ولكن كون الطير جاء .. وكون المعجزة تمت .. لم يجرؤ أحد من أعداء الإسلام أن يطعن فيه.

وهكذا يعطينا الحق سبحانه وتعالى دليلا من التاريخ لمعجزة مشهودة حدثت .. ويعطينا معها الدليل على صدق حدوثها .. فإذا أضفنا إلى ذلك ما ذكرناه سابقاً عن قوله تعالى :

﴿ ألم غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون ﴾

لوجدنا دليلا تاريخيًا آخر .. ثم يأتي بعد ذلك دليل ثالث يضيف إلى هذه الأدلة التاريخية.

شهادة التاريخ

نلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى عندما يذكر في القرآن الكريم شيئاً عن حاكم مصر في عصر موسى عليه السلام .. كان يسميه فرعون .. أي أن الذين حكموا مصر أطلق عليهم القرآن اسم الفراعنة .. فيقول تعالى :

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ ﴾

(الآية ٥١ من سورة الزخرف)

وهذا يتفق مع التاريخ في أن الذين حكموا مصر في العصور القديمة هم الفراعنة .. إذن حكام مصر القدامى فراعنة .. والقرآن سماهم فراعنة .. فإذا أتينا إلى سورة يوسف عليه السلام وجدنا أن الله سبحانه وتعالى، وهو يروى لنا في القرآن الكريم قصة يوسف في مصر .. لم يلقب حاكم مصر بفرعون .. بل لقبه بالملك فقال تعالى:

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ﴾

(الآية ٥٤ من سورة يوسف)

وقوله تعالى :

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ ﴾

(من الآية ٤٣ من سورة يوسف)

إذن فثابت من القرآن الكريم أن يوسف عاش في مصر .. وأنه خلال وجوده في مصر اختلف في القرآن الكريم اسم حاكم مصر .. فلم يكن

يلقب بفرعون .. بل لقب باسم الملك ويمضي الزمن ويكتشف حجر رشيد ثم تحل رموز اللغة المصرية القديمة .. ويثبت أن يوسف عليه السلام عاش في مصر في الفترة التي احتلها فيها الهكسوس .. وأن هؤلاء لم يكونوا من الفراعنة .. وأن حاكمهم كان يطلق عليه اسم الملك .. ولم يكن يطلق عليه اسم فرعون .. وأن المصريين طردوا الهكسوس .. وعاد الفراعنة إلى الحكم مرة أخرى.. من الذي أنبأ محمداً عليه الصلاة والسلام بهذه الحقائق التاريخية التي لم يعرفها العالم إلا في الفترة الأخيرة بعد اكتشاف حجر رشيد ؟! . وكيف علم أن يوسف كان في عهد الهكسوس.. وأن موسى كان في عهد الفراعنة..

وهكذا يأبى الحق سبحانه وتعالى إلا أن يعطينا الدليل المادي التاريخي على إعجاز هذا القرآن .. وعلى أن الله يعلم ما في الدنيا والآخرة .. وأنه بكل شئ عليم .وحتى يظهر ذلك لعباده وبالدليل المادي جاء بحقيقة تاريخية لم يكن يعلمها أحد من البشر وقت نزول القرآن .. وذكرها في كتابه العزيز .. حتى إذا تقدم الزمن وكشف الله لخلقه ما شاء من علمه .. ظهرت لهم هذه الحقيقة لتكون عطاء وإعجازاً جديداً للقرآن الكريم .. في الوقت الذي تظهر فيه هذه الحقيقة وتخرج إلى علم البشر .. حتى تكون معجزة من معجزات القرآن يظهرها الله بعد نزول القرآن الكريم بقرون عديدة.

على أن الله سبحانه تعالى قد أعطى من أسرار ملكه ماشاء لمن يشاء وكشف عما شاء من علمه لمن شاء .. ولكنه احتفظ لنفسه بعلم بدء الحياة أو الخلق ، وبعوامل استمرار الحياة.. وبنهاية الحياة وهي الموت .. فمهما تقدم العلم وازدهر .. وكشف الله من أسرار كونه .. فإن الله هو الذي

يحيى ويميت .. وسيظل يحيى ويميت إلى أن تأتي الآخرة ويتم الحساب .. وتقبض روح ملك الموت .. فلا يصبح هناك موت .. ولكن خلود .. إما في الجنة وإما في النار.

الحياة .. والموت من الله

تأمل قول الحق سبحانه وتعالى في سورة الشعراء :

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ ﴾

(الآيات من ٧٨ – ٨١ من سورة الشعراء)

وإذا أردنا أن نتأمل ما جاء في هذه الآيات ـ ونستعرض الإعجاز فيها بإيجاز ـ نجد أن قضية الخلق محسومة لله سبحانه وتعالى .. فهو وحده الخالق.. والكل عاجز .. ولا أحدٌ يستطيع أن يدعى أنه يقدر على خلق شئ ولكن قضية الموت فيها جدل .. فإذا قرأت قوله تعالى :

﴿ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ﴾

(من الآية ٢٥٨ من سورة البقرة)

والآية تروى قصة الحوار بينَ من آتاه الله الملك وإبراهيم عليه السلام فلما قال له إبراهيم : ربى يحيى ويميت .. أخذت من أتاه الله الملك العزة فقال : أنا أحيى وأميت .. وجاء برجل من رعيته، فحكم عليه بالإعدام وقال : هو ميت .. ثم عفا عنه وقال : أحييته .. نقول : إن الناس لا تتنبه للفرق بين القتل والموت .. فالقتل هو إفساد لجسد الإنسان يجعل الجسد غير صالح لبقاء الروح فيه فتغادره ، ولكن الموت هو إخراج الروح من الجسد دون هدم أو إفساد للجسد .. ولذلك فرق الله بين الاثنين في القرآن

الكريم فقال :

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ﴾

(الآية ١٤٤ من سورة آل عمران)

وقال جل جلاله :

﴿ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾

(الآية ١٥٨ من سورة آل عمران)

إذن الموت لله وحده ، هو الذى يميت ، ولكن القتل ـ وهو غير الموت ـ يمكن أن يتم على يد عباد الله .

ولأن الله هو الذى يميت .. فلا أحد ينجو من الموت أبدا .. لأن أمر الله نافذ على كل خلقه .. ولأن الإنسان يمكن أن يتم على يده القتل .. فهناك من ينجو من القتل مرة ومرات لأن أمر الإنسان غير نافذ فى الكون .. ثم تقول الآية الكريمة : ﴿ والذى هو يطعمنى ويسقين ﴾.

ويلاحظ فى الآية الأولى أن الحق سبحانه وتعالى لم يستخدم أسلوب التأكيد فقال : ﴿ الذى خلقنى ﴾ ولم يقل هو الذى خلقنى لأنه لا أحد ينازع الله فى الخلق ولكن الطعام والشراب جعلهما الله أسباباً للإنسان .. فجاء التأكيد هنا ليلفتنا إلى أن هذه الأسباب ليست هى الأصل .. وإنما كل شئ من الله .. فالحبة فى أى نبات خلقها الله سبحانه وتعالى ووضع فيها خصائصها .. وخزن فيها الغذاء الذى يلزمها حتى تستطيع جذورها أن تضرب فى الأرض لتأخذ منها عناصر الحياة .. وهو الذى أعطاها خصائصها .. وخلق لها الأرض التى تزرع فيها .. وأنزل الماء فى

الأرض فتظل تتغذى على المخزون فيها من الغذاء الذى وجد فيها بقدرة الله .. ثم بعد ذلك تمتص من عناصر الأرض مايلزمها فقط وتترك الباقى ثم تظل تنمو وتنمو حتى تثمر بقدرة الله وليس بجهد بشر .. فكأن الطعام كله من الله سبحانه وتعالى .

والشراب ايضاً من الله

فإذا جئنا للشراب نجد أن كل ما يشربه الإنسان هو من الله سبحانه وتعالى .. فالماء ينزل من السماء عذباً سائغاً بقدرة الله .. واللبن نأخذه من الحيوان وهو مخلوق بقدرة الله.

ولقد حاول العلم أن يصنع اللبن فجاء باللبن الطبيعي وحلله إلى عناصره .. ثم جاء بهذه العناصر وخلطها مع بعضها البعض بنفس النسب الموجودة فى اللبن الطبيعى .. ثم جاء بعشرين فاراً سقى عشرة منها اللبن الطبيعى .. والعشرة الباقية سقاها اللبن المصنوع من نفس عناصر اللبن الطبيعى .. فنمت الفئران التى سقيت اللبن الطبيعى وماتت الفئران التى أعطيت اللبن الصناعى .

ومازال العلم حتى الآن عاجزاً عن أن يصنع نقطة لبن واحدة .. بل إن بعض دول العالم التى تعانى نقصاً شديداً فى اللبن . لا تستطيع أن تحل الأزمة .. فتحرم اللبن على الكبار ليكون متوفراً للأطفال .. ومنها الاتحاد السوفيتي والصين وكوريا الجنوبية وغيرها من دول العالم .. ومن الإعجاز الإلهى أن هذا اللبن تعطيه لنا حيوانات يجرى فى عروقها الدم ... فلا يختلط اللبن والدم أبداً .. وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ نُسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ ﴾

(الآية ٦٦ من سورة النحل)

على أن العلم البشرى كله عاجز حتى الآن عن أن يسقى الناس الماء أو اللبن.. فالإنسان الذى وصل إلى القمر عاجز عن أن يصنع ترعة صغيرة .. أو كوباً من اللبن .. أما باقى الإشياء الأخرى التى يشربها الإنسان فهى مما أوجدها فيها من ثمر يضاف إليها الماء أو لا يضاف.

الشفاء والمرض بين القدرة والطب

فإذا جئنا إلى قوله تعالى : ﴿ وإذا مرضت فهو يشفين ﴾.

نجد أن هناك جدلا كثيراً حول هذه الآية .. فالناس تقول إن الطبيب هو الذى يشفى . ولكن الحقيقة هى أن الشفاء بيد الله وحده .. وأن الطبيب يعالج فقط .. وقد يأتى على يده الشفاء .. وقد يخطئ فى العلاج فيكون على يده الموت.

والله سبحانه وتعالى جعل لكل داء أجلا فى الشفاء .. ولذلك يحدث كثيراً أن طبيباً مبتدئاً يكتب الدواء الصحيح لمريض عرض نفسه على أكبر الأطباء فلم يعرفوا لدائه دواء وفى هذه الحالة قد يتعجب الناس ويقولون : إن هذا الطبيب حديث التخرج أعلم من أساتذته . نقول لهم : هذا تفسير خاطئ . فالاستاذ قطعا أعلم من تلميذه . وهو الذى علمه .. ولكن قدر الله سبحانه وتعالى بالشفاء جاء فكشف الله عن الداء لهذا الطبيب المبتدئ .. فكتب الدواء وتم الشفاء .

وليس معنى أن الله هو الشافي ألا نلتمس الوسيلة للعلاج . فنحن في هذه الدنيا أمرنا الحق سبحانه وتعالى أن نأخذ بالأسباب.. ثم بعد ذلك نتوكل على الله في النتائج.

والآية الكريمة تقول بعد ذلك : ﴿ والذى يميتنى ثم يحيين ﴾.

ونلاحظ هنا أن الحق سبحانه وتعالى لم يستخدم أسلوب التأكيد فيقول : وهو الذى يميتنى ثم يحيين .. لأنه لا أحد يستطيع أن ينازع الله في الموت أو البعث .. فإذا جاء الموت فلا أحد يستطيع أن يتأبى عليه .. أو يقول : لن أموت .. وإذا جاء البعث ، فالله وحده القادر على بعث الموتى .. وبذلك نكون قد أثبتنا بالدليل المادى أن بداية الحياة واستمرار الحياة ونهاية الحياة .. هى من قدرات الله سبحانه وتعالى وحده.

وإذا كنا قد جئنا إلى نهاية هذا الكتاب .. فنرجو من الله سبحانه وتعالى أن يكون قد هدانا إلى ما يثبت الإيمان في القلوب .ومايرد على أولئك الملحدين الذين يدعون أنه لا توجد أدلة مادية في الكون على وجود الله.. ونرجو من الحق جل جلاله أن يتقبل منا .. إنه هو السميع العليم.

الفهرس

****

الصفحة

رقم الإيداع
٩٥/٥٩١٢
I . S . B . N .
977 - 08 - 02425

مطابع أخبار اليوم التجارية
قليوب مصر

مطابع أخبار اليوم التجارية
قليوب – مصر